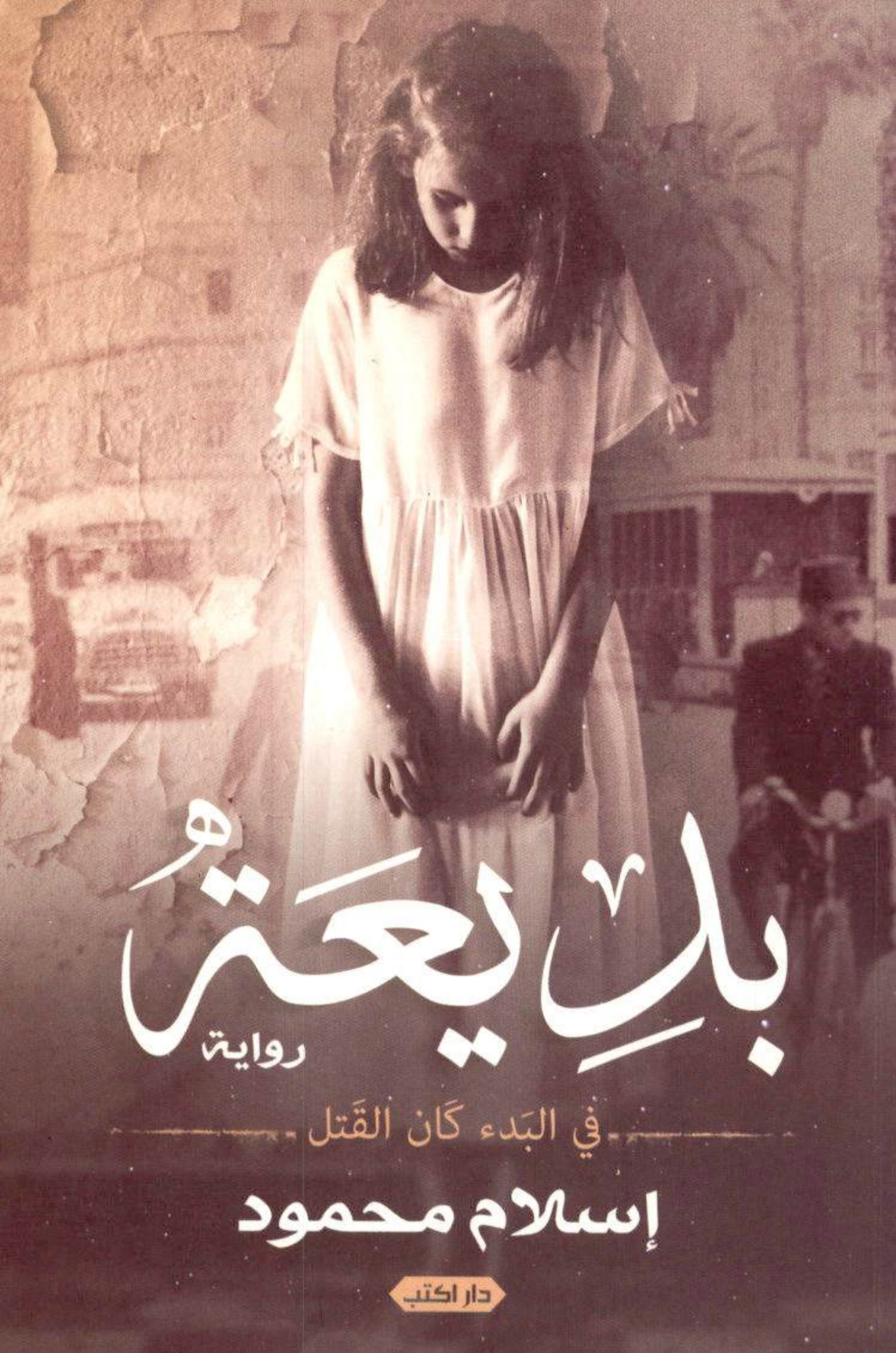


بدِيعَة
رواية
في البَدء كَان القَتل
إسلام محمود
دار اكتب

بـديـعـة

بديعة

في البدء كان القتل

إسلام محمود
الطبعة الأولى ، القاهرة 2017
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد المصري
رقم الإيداع : 26988 /2016
I.S.B.N: 978-977-488-495-5



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

بديعة

رواية

إسلام محمود



دار اكتب للنشر والتوزيع



أبي ..

أنتَ الأروع فقد اخترتَ لي من بين النساء ..

أمي



1

مساءات عابرة تُبلّلها صباحات كسيحة.. لا يفعل إلا الظلام.. الضوء العنين لا ينتصب.. يستمني أشعته الخذلى ويدير ظهره لفرْج العتمة القريب.. يضيع سلساله نقاطًا متخثرةً على الأرض التي لا تفهم، وحين يأتِ على أصلاب الظهر المُنحني لا يكون إلا الظلام سيدًا.. الأمر لا يحتاج تدخل المطلق.. فقط سلسلة من المتتاليات الصغيرة اليومية.. فقط هي التي تهزُّ عرش المساء.. الظلام ليس الأساس.. لكن الكثير لا يعلمون.. أرأيتَ ظلامًا في ذاته؟! لكنك حتمًا رأيت نورًا في ذاته.. لن ترى الظلام إلا بالنور.. العَرَضْ لا ينفعه عَرَضٌ مثله.. حتى الجمال لا يُرى إلا بالنور.. أرأيت جمالًا في ذاته بغير نور؟!

نعيش كما يفعل الكل.. أطفالًا نخاف من الظلام، وحين نكبر نصير كِبارًا يخافون من النور.. صِنفان نحن.. واحد نام في النور، والثاني استيقظ في الظلام.. الخوف يحكم، ولكن الثورة لا تكون ضد الظلم لتأتي بالظلام.. وإلا فأين الجوهر من كل ذلك؟! النور.. المُطلَق نور.. النور نور.. أنت في ذاتك نور، ولكن ستعرف ما أقول لك.. ليس الآن ..

الآن .. دع الظلام يحكم .. فهذا أوانه.

***

الظلال شعاعات الظلام.. لا تُبدّده.. بل تجليه، وبين الظلال.

يبين منديل زاهٍ.. يتعانق الأحمر فيه بالأزرق، ولا ينجبون برتقاليًّا.. يلتقيان في خطوطٍ.. يتباعدان في متوازيات.. تحدُّهما "أوية" بيضاء حال لونها تعصر جبهة طفلة العاشرة التي تبدو نائمة.. مرتبة الجوخ على السرير المعدني الرمادي تتآمر عليها.. تجعله ينال من ظهرها، وجنباتها.. الجبهة السمراء الشاحبة لا تَنُمُّ عن عمر زمني، وإن تغضّنت مبكرًا فصارت أخاديدها الثلاثة يخبر كل واحد منها عن عشر سنوات.. فتم ميقات الشقاء ثلاثين عامًا.

فتق الكتف اليُمنى يكشف عن لون أقل سوادًا من مصير الجبهة.. ارتفاع الكتف يدل على بنية قوية امتدَّ تأثيرها لقدمين عاريتين متسختين.. خريطة العروق فيهما تختلط بسواد قديم لقدمين لا تعرفان إلا حميمية الأديم، وحين تنتهي من تفرُّسهما فجأة.. تشلّ حركتك عينان تكويان، لا تحملقان.. بل توقدان الجحيم في داخلك.. الجسد

المُسجَّى يُبعث زاوية قائمة.. الظلال ترسمان الملامح بقدر ما تخفيانها.. لكن أنَّى لك أن تجول بعين تحترق في ملامح لن تستبين.. كأنما الجذب قد شدك للعين فلا تكون بعدها إلا عينًا، وكأنما اللهب الذي يخرج من محجريهما لم يُبق حوله من شيء يُرى فلا تدري بعدها هل اختفت الأشياء من حولك أم أنت الذي غاب؟! الأصوات كذلك.. دقات الحدّاد في الشارع الخلفي التي كانت تصمُّ الآذان توارت خلف اللحظة.. الانسحاب وقتها نصر كبير، ولكن قدميَّ لا تستجيبان.. لا تحملانني.. رُباعية الشلل من ثنائية النظر.. أحادي الحيلة ينتفي..

ظللتُ مشدوهًا، وقد وقف الزمن مصلوبًا على ظهري.. الاستسلام نصر أكبر، ولكنه لا يزال يفترض الإرادة.. لا أدري كيف يدور الذهن، والجسد قد استحال صنمًا، وبين التسليم، والاستسلام تظل ثُمالات العزيمة تقف بينك وبين الذوبان في تلك النار، وحين تريد ألا تريد.. تفلتك هي في لحظتها، وقد اعتلاها ابتسامة ليتها ما كانت.

حين تهربُ لا تفكر إلا في الهرب، وحينها يخلق هذا الوضع مَنْ يتبعك.. أرتعش، وترتعد كتفايَ.. ظهري يتلظى بلهيب يلفحه من عينيها.. عدتُ إلى مكاني البعيد الذي تركته فضولًا، وعدت إليه بقايا تلملم بقاياها.. أنتظر صباحًا أعلم أن الليل قاتله.. لا انعتاق من خلفه.. لعينين كهاتين تظل أسيرًا أعمى بقية عمرك.. فقد أغلقت عينيك على جمرتين، وأطبقت عليهما حتى أتت على المحجرين، وتمدُّ يدك بعدها تطمع في دليل .. هيهات.

الإثنين 16 مايو سنة 1921م

الموافق 8 رمضان سنة 1339هجرية..

ثُمالات البصر قرأت وريقات التقويم الصفراء على الحائط الرطب الذي تلقّى أول شعاع لشمس خجلى من يوم جديد فارق.

الملجأ الأميري العباسي.. أو دار الرعاية كما يطلقون عليه الآن.. لم تعد كما كانت في هذا الصباح الغريب.. الأطفال يركضون في هيستيريا جماعية.. سبع عشرة فتاة في عمر متقارب.. مع اندفاعهنّ لم أميز منهنّ سوى.. هانم ونظلة، وعزيزة، وزنوبة وأنيسة ونبوية البيضا، وسليمة ونبوية السمرة وفاطمة وآخرهن فردوس، وهي من استوقفتُها وسألتها..

– هو فيه إيه؟!.

– البت إللي جابوها امبارح..

– بنت مين؟

– ....

كانت نهاية الحوار بنهاية تخطيها لحاجزه، وهي تركض باتجاه مبنى البنات الذي تركته البارحة يشتعل بعيون غريبة ..

كان عليّ أن أنتظر قفزةً أخرى للطفلة حتى أستوضح شيئًا.. لكنها تحاشت طريقي، ودلفت مباشرةً نحو الفناء تُلقي بياها الأول على فتيات الدار..

حاولت التنصُّت من نافذة تطل على الحديقة.. لحتني فتكوّرت أكتافهن فجأة على مكنونهن، وذهبن يحملنه مُتثاقلاتٍ نحو الشجرة القريبة من البوابة الحديدية الضخمة التي تفصلنا عن عالم آخر..

لماذا أحسستُ اليوم بشكل معاكس أنها تفصل ذاك العالم عنا بقُدوم الغريبة؟!

***

مجداف ليل أنا ملء العتمة.. أنزّه ظلماتها عن تهاويم الفجر الشحيح، وعلى منكبيها غُبارٍ مِنْ نَصَبٍ.. أحاول أن أغسله بدموعي، وأجففه بالأهداب.. فلا الدموع تغسل، ولا الغبار زال.. جبينها

المُغضّن تقتسم قسماته خطايا السنين.. التوبة تمتنع.. الشمس تشرق سناجًا على صفحات الوجه، وبين هواجس الغروب وتمنيات الأفول تظل هي طريدة الشموس السوداء التي تعاورتها كما الأحزانِ فُرَادَى أَوْ زَرَافَاتٍ.. يوقد الهمُ عليها تنّور ثورتها فلم يدفع حتى فاتورة الطاقة.. سيدة الرماد لا تُبعث من جديد.. فقط تراكم كوماتها في غيبة كبرياء الألم العنيد.. مُعلّقة هي بين لا ضدين ظلام، وليل.. سواد، وعتمة.. حزن، وألم .. ثُنائيات لا تنتهي تحلم بالضياع أملًا أن تصير حكاية.. تروي رائحة الحُزن الأسود، وطعم الظلال المواربة المتآمرة.. اقتاتوا عليها باعتياد مقيتٍ.. فأتوا عليها، وأتت عليهم ولا نعلم مَن انتصر بعد.

أديرُ عقارب ساعة البندول لثقل سويعات رعب لم تبدأ.. تذيب ثلوج السلام في كأس الخوف.. تستهلك لحظات سعادة القَبْل بِنَهمٍ.. تستدعي التواريخ القديمة للألم سواء عليك أجزعت أم صبرت ما لك من محيص.. الرهبة ستنزع عنك أصفاد الارتجاف، وكيف لروحك أن تجد لها ملجأ..

أُراقِبُ نزلاء الدار وهم يمرون جيئةً، وذهابًا.. جوقة تمهد لسطوع راقصتها، ولكني لم أرَ الأمر كذلك.. كان الممر يضيق أمامي كلما اقتربت الخطوات الحافية على موزايكو أرضية دار الرعاية.. كان أولى بالظلال أن تنفرج شيئًا فشيئًا.. تتباعد.. لكنها تكاثفت.. فقط نكايةً

فيّ.. علت ضربات قلبي وجلًا على قلوب الفتيات الصغيرات فرحةً.. كأننا ننتظر شخصين، وحين اشتدت العتمة توقف حولي كل شيء.. حتى ضربات القلوب، وظهرت خصلات شعر ترسم جذورها رأس ميدوزا في بداية الممر ونهاية باب غرفة المشرفة، وإذا بها.. شيـــط...!

ملاك فر لتوِّه من الجنة لينقذنا من الجحيم.. كنتُ أتلفت يمنة، ويسرة لعل من أنتظرها تأتي خلف الملاك الرائع.. حتى استفقت على عيني تجولان في الجسد الصغير أمامي.. كل ما فيه صار نزهة للحواس الخمس.. لكني أدركتُ أننا كنا بانتظار شخص واحد، وإن كان لا بد من وجود مخطيء.. فهو أنا.

أدرت عيني إلى عيون الفتيات ورائي، وهم يحملقون فيها بإعجاب.. تشابكت أياديهن أمام صدورهن كما كانت تفعل راهبات الكنيسة المجاورة عندما كنتُ أُراقِبهن من خلف نافذة مكتبي.. دلائل الانبهار لا تخفى .. العجب الداخلي أقوى.

2

العيون الذابلة تخفي انكسارًا أبديًّا ليس وليد فاجعة قريبة.. انحناء الجبهة الذليلة يؤكد أنها لم ترتفع يومًا.. الكتفان تتدلّيان بتراخٍ على جانبيها كأنما تم تركيبهما بصورة مغلوطة.. إلى الأسفل كثيرًا.. فتق الكم الأيسر لم يظهر لي رغم أني كنتُ عن يسارها.. تحلّقت الفتيات من حولها.. تابعت ملامح الوجه المُستسلِم للأسى لم تحاول أن تنتزع إبتسامة تردّ على ضحكات من حولها.. حتى الجسد لم يستجب لقفزاتهنّ .. كانت مفارقةً لواقعٍ من حولها ..

وحين أخذن بيديها لتتقافز معهنّ لم يفزن منها إلا بحركة ميكانيكية لذراعين كسولتين تخافان مجالات العودة، وبينما تحلّقن حولها، وبينما انفرجت بعض تغضُّنات وجهي؛ كأني بالدنيا تدور من جديد، وبالظلال تهوي بلا نذير، وإذا بها تستدير نحوي كأنها تعرف أني

أتابعها رغم كوني خلف مكتبي الزجاجي في آخر زاوية رؤية لها، وإذا بالعينين من جديد، وبعدها.. بعدها لم أشعر بشيءٍ من حولي، وقبل غياب اللاوعي قبل الوعي؛ أيقنتُ أني، والفتيات كنا ننتظر شخصين، وأني لم أكن مخطئًا يومًا، ولعلّني لن أكون.

***

حين تخاف من شيء ينتفي هو.. حين تخاف من غير الله.. تنفيه.

هو.. سكون مطْلَق، والخَلْقُ اهتزازُه.. فالموجوداتُ هي هو لا هو هي .. "أراني فيكَ موجودًا / وعني أنتَ منفرِدُ"، وإذا كان محبة أي وعيًا كونيًّا فائقًا.. كان الخوف وجهًا آخر لعملة المحبة.. وعيًا كونيًّا فائقًا هو الآخر، ولا يملك أحد رؤية وجهي العملة في آن واحد. هذه هي الحقيقة.. فإنْ خَفِيَتْ لقد جلّــتْ وإنْ ظهرَتْ لقد زانتْ.

لم يكن المسيطر منها عليّ ظنًّا فاسدًا.. أو خداعًا حسيًّا منفكًا عن الواقع.. كانت هي ..

حُكمًا جازمًا لا يقبل التغيير.. كانت علمًا.. كانت هي ..

حُكمًا جازمًا يقبل التغيير.. كانت اعتقادًا.. كانت هي ..

تساوى طرفاها.. كانت شكًّا.. كانت هي ..

تُرجح أحدهما.. فكانت الراجح.. ظنًّا، وكانت المرجوح.. وهمًا.. كانت هي، وكنتُ أنا.. الضحية المتواطيء الذي لم يَسْلَم من الخوف.. بل أسْلَم له، وحَسِبَ أنه سَلِم.

عندما تُنَصِّبَ الخوفَ إلهًا؛ يتجسد لك في كائن شخصي أعلى من البشر يُلقي الأوامرَ، ويقطع العهودَ وتُرفع إليه الصلواتُ، وفيه تكون هي الكاهنة العظيمة الواحدة، والوحداء.. تخط تقاسيمك.. تدير تلافيف دماغك .. تلملم تباعيضك في كل جديد من صنعها هي.. تهيل عليك التراب تارة، وترشرشك بماء نار عينيها تارةً أخرى.. فتستحيل طينًا ناريًا لا إلى آدم، ولا إلى إبليس ..

وحين تفيق تجد الأرض ممددة تحتك وسقف مكتبك يكاد يتهاوى عليها.. فما كان لسماء أن تعبأ بوجودك، ولا لأرض.

تقف لتطالع ذاتك على صفحة مرآة قديمة تتوسط مكتبًا كُتب عليه من الخارج "مكتب الاختصاصي الاجتماعي".. تتذكّر كم ناضلت بضع سنين حتى يكتبوه كذلك، وكم درست في إيطاليا بضع سنين حتى تستحقه لتعود بشهادة الدكتوراه قبل عام من اندلاع الثورة وفي نفس عام انتهاء الحرب.. تواريخ إذا وضعت بعضها فوق بعضٍ.. أو تحت بعضٍ لن تجد إلا الشقاء.. **1882**.. عام الميلاد، وعام الاحتلال.. **1914** عام السفر إلى إيطاليا في بعثة، وعام اندلاع الحرب.. حتى يوم السفر كان الخامس من أغسطس حين شارك الجيش المصري مع الحلفاء بأكثر من مليون و**200** ألف مقاتل، وقاتل في ثلاث قارات، وكان ترتيبه الثامن من حيث عدد القوات المشاركة.. فقد استطاع الجيش المصري صَدَّ هجوم العثمانيين من

الشرق، وحارب في الشام والعراق والجزيرة العربية في آسيا، وكذلك صد هجوم السنوسي من الغرب، وهجوم سلطنة دارفور من الجنوب في أفريقيا، كما شاركت مصر على الجبهة الأوروبية بمائة ألف مقاتل من سلاح العمال والهجانة، حيث قاتلوا في الكثير من الدول التي شهدت الحرب في القارة العجوز، وفقدت مصر خلال الحرب ما يقارب من نصف مليون شهيد.. في سبيل ماذا؟..

لا أدري؟!.

أفقتُ على أصوات أقدام ثقيلة في الممر شاء لها أن تتوقف أمام باب مكتبي ليدقّ الباب، وأجد مسعدة ساعية الدار تملأ الباب، والعين الفارغة نتاج تزاوج نادر جمع أفراس النهر بإنسان الغاب فكانت مسعدة ..

- دستور يا سي الأستاذ.. الست الناظرة طالباك ..

قالتها، وهي تصطنع دلالًا لم يساعدها جسدها المصبوب في قالب براميلي أن تُحسِن التعبير عنه.. حتى عندما كُسرت قدمها اليسرى لعل الوسط يستبين.. لم يساعد ذلك كثيرًا، وإن أظهرها في شكل ذوات الإعاقة اللاتي يتردّدن على أبي العباس المرسي عند مسكني القديم.

- ....

- طالباني أنا ..

- لأ .. أنا!

- يووه اختشي أمال يا بنت.

- آه وحياة أمي عايزاك إنت يا سي الأستاذ.. قالتلي ناديلي اشخصاتي الامتراعي.. قصدي المشخصاتي الاجتواعي.. القصد بقى.

- ومَا تعرفيش عايزاني في إيه؟

- لا وشرف أمي إن شا الله ما أوعى أتجوز .. بعيد .. بعيد

- ....

- حلوة البسكويتة بتاعة بلاد بره إللي على مكتبك دي ..

- اتفضليها يا مسعدة..

- ....

وفي لمحة اختفت البسكويتة بغلافها السوليفان في فمها.. كنتُ أواظب على شرائها منذ عودتي من دكان الخواجة ماريو أول شارع فرنسا في المنشية.. كانت تُذكّرني بأربع سنوات قضيتها في إيطاليا أدرس الفلسفة وأتخصص في علم الاجتماع في السنة الأخيرة.. كان هذا النوع من البسكويت المحشو بكريمة زبدة البندق بالشيكولاتة هو وجبتي الأساسية كل يوم وبين المحاضرات في جامعة روما ..

وقبل أن تحشر إصبعها في حنكها، وتديره يمنة، ويسرة لتجمع بقايا البسكويت في فمها لتتذوقه للمرة الأخيرة وجدتها تقول ..

-- بس الظاهر والله أعلم يا سي الأستاذ الموضوع فيه لَبَش ..

-- لَبَش ؟!

-- آه لَبَش اسم الله على مقامك.

واقتربت برأسها أكثر فأكثر، وليتها ما فعلت لتهمس لي في فحيح عجيب:

-- لأني لقيت الباش شاويش قاعد عندها.

-- باش شاويش، والست الناظرة.. لما نروحوا نشوفوا فيه إيه..

***

الخوف هو الخوف.. إن ظل خوفًا أو إن تحول إلى فوبيا.. يقع الحدث المُسبِّب له، تحاول الهرب منه لحفظ النفس.. تنتابك حالة من الحذر والترقُّب ..

كل هذا .. لم يحدث ذلك معي.

كان الخوف قد تجسَّد فلم يعد شعورًا أو حالةً أو مرضًا أو انحرافًا أو انفعالًا.. كان هي.. فقط هي.. لم يكن الخوف من وجود خطر يتهدد بقاءك.. كان محوًا لوجودك، ونفيًا لبقائك.. لم يكن حقيقيًّا مثل الخوف من وجودنا في الظلام.. كانت هي الظلام، ولم يكن الخوف حقيقيًّا.. كما لم يكن نزوعيًّا كالخوف من المرض، ونحن أصحاء.. كانت هي.. هي المرض، ولم أعد أنا صحيحًا بعدها ..

عندما تُزلزل عينان كمثلهما كيانًا كمثلك بحيث لا تحتمل وطأة الخوف؛ يعمل ميكانيزم الكبت عمله، وتتساقط المخاوف الزائدة إلى

أغوار اللاشعور فلا تصير أنت، ولا تعد هي إلى سيرتها الأولى.. أو الثانية.. لا أحد يعلم.. فتصل إلى حالة لم تُعرف من قبل.. حالة الفوبوفوبيا..Phopophobia.. الخوف من الخوف.. خوف من أن تتعرض للخوف.. فتتسع العينان بانفراج الجفون.. تبتعد شيئًا فشيئًا عن الحدقة ليأخذ الحاجبان مكانهما إلى أعلى.. ترتدُّ الجبهة إلى الخلف.. الأسنان يصطكُّ بعضها ببعض.. تحاول فيما تحاول عضّ اللسان أو السطح الداخلي للخدين.. الشعر يقف حتى بالعانة .. وإن صار القضيب ملكًا لا يقف لأحد بعدها أبدًا.

3

توجهت تلقاء غرفة الناظرة.. سيدة في الستين من عمرها.. تُشبه راهبات سانت جان انتيد حين كنت أراهم في محطة مصر، وأُجرّب معهم إيطاليتي التي كادت تندثر.. بياضها بياض أموات إلا من سواد العينين فكأنهما فحمتان في بحر من اللّبن المتخثر بفعل تجاعيد السنين.. كان تعييني على غير رغبة منها.. فالاختصاص الاجتماعي لم يكن قد انتشر في أرجاء المحروسة بعد، وكان من يقول به إما أن يكون جاهلًا أو دجالًا.. أما النظر إليه على أنه علم فما كان لينتشر في البلاد، وإن انتشر ستكون الست الناظرة آخر من سيصيبها الانتشار..

المشاعر المُحايدة سلاحي تجاه الغرباء.. لم أبدأ بالمشاعر السلبية، ولعلني لم أنتهِ بأيِّها.. بل انتهيتُ معها إلى مشاعر إيجابية بالشفقة تجاه

من يبحث عن سبب ليكرهك، ولا يجد.. من وقت لآخر أساعدها بأن أعطيها "سُببًا" حتى تفعل..كأن أقاطعها.. أو أن أجتمع بالأطفال في الحديقة دونما إذن منها أو دونما آذان من ناحيتها تنقل لها ما يقوله الأفندي "المستنور".. أبو "كرافتة سودة قصيرة".. كما تُحب أن تتحدّث عني مع عيونها، وبصّاصيها الذين جنّدتهم كعملاء مزدوجين.. لا للتغلُّب عليها، وإنما للحفاظ على توازن مطلوب بين واجهة محافظة تؤمّن لي مكانًا لأبحاثي، ودراساتي على الأطفال، وبين باطن يمور بالعلم، وبنظرياته التي لم تجد مَنْ يصدق في وجودها ناهيك عمن يصدقها أو يؤمن بها.

طرقت الباب طرقتين.. سمعتُ صوتَها بانفعال يخبرني بأن أدخل.. تأخّرت عمدًا لعشر ثوانٍ لآتيَ على ما تبقى من أعصابها المحترقة كرّرتها ثلاثًا، وبعد الثالثة بثانيتين كنتُ أفتح الباب، وعلى وجهي ابتساماتي التي تستفزها.. تذكّرت أنني تدرّبت عليها أمام المرآة ليومين، وليلة، وحين أجدتها لم أعرفني في المرآة ..

***

- سُك الباب وراك لو سمحت..

كانت لهجتها القاهرية تسيطر على مفرداتها، وكنتُ أتعمد إبداء غبائي أمام بعض المفردات نِكايةً فيها، وفي لهجتها، وفي قاهرتها المُصطنعة.

- ....

- اقفل الباب يا فتحي أفندي ..

- ....

- إتفضل ..

- ....

- الباش شاويش جاب لنا حالة امبارح بالليل.. عندك خبر؟

- لأ

- أنا قُلت كده برضه.. لأني أنا إللي لازم تعمل كل حاجة في الدار ديز

أعادت خُصلة الشيب من على جبين التجاعيد الأخدودية إلى الرأس الصغير..

كان الشاويش يجلس أمامي متعرّقًا، زائغ العينين، ينظر نحوي في بلاهة.. يتحرّق لأن يسمع منها أنها استلمت الحالة، وأنها ستوقّع سَركي التسليم، والاستلام الذي أتى به من كراكون اللبان البارحة، ولم ترد هي أن ترحم المسكين إلا في مكتبها، ووفق مراسم تضعها هي..

- أصل يا سي الأستاذ العبارة، وما فيها إن البنت دي تبقى ...

قادلعته الست الناظرة بنظرة حادة تراجَعَ الرجل على إثرها إلى كرسيه الخشب ليصبح أقل حجمًا، وكأني بشاربه، وقد تهدَّل قليلًا من هول ما نهرته ..

– العبارة يا فتحي أفندي إن محضر الاستلام للحالة دي لازم توقع عليه بصفتك .. بصفتك ..

لم أساعدها لتتذكر اختصاصي الذي تتعمد نسيانه لإظهار عدم أهميته.. ثم أنا ما اسميش فتحي أصلًا!

تركتها تبحث في الأوراق، وتطرقع بإصبعيها تجاهي حتى أذكِّرها به.. فلم تفلح فعلتها.. كما أن النسيان العمدي تحوّل عندها فجأة إلى نسيان فعلي حتى أنها قامت لتُخرج ملف خدمتي من خزانتها ..

ولَمَّا تذكرته لم تُعِدْ الملفَّ لمكانه ..

تردّدتْ ثم تركته بجانبها لتربت عليه بعدها كأنما تطمئنُّ على أنه استقرَّ في متناول يدها، وعينها.. ثم طلبت المَحضر من الشاويش، وفتحته على صفحة التوقيع، ومدت يدّها به إليَّ، وباليد الأخرى قلمها الذهبي الذي لم يخرج أمامي من قبل ..

ثبتتْ عينيَّ عليها في وجه خالٍ من التعبير ..

– أوقّع على إيه يا ست الناظرة؟

– يووه.. على محضر استلام الحالة.. أُمَّال أنا كنت عَمّالة أقول إيه؟

– حالة إيه؟

– الحالة إللي جابها الشاويش امبارح .. جرى إيه يا أستاذ لمعي؟

– يا فندم توقيعي مش ضروري لأني من ساعة ما جيت المكان ده دخلت 48 حالة تسليم، وتسلُّم غير حالات الإيواء، والكفالة اللي مش محتاجة، وحضرتك ما طلبتيش مني توقيع ..

– أيوه..بس الحالة دي مختلفة.. ياريت توقّع على المَحضر وبعدين أتكلّم معاك.

– وليه ما يكونش العكس .. نتكلموا وبعدين نوقعوا؟!

– ....

– ....

وجدتها تصرخ بعدها في وجهي بينما تتوجَّه بالحديث إلى الشاويش ..

فقد نظرت إليّ وقامت (نص قومة) في وضعية النطح وهي تصرخ..

– اطلع بره .. استنانا شوية يا شاويش لغاية ما أندهلك ..

انتظرتُ أن تُحيل بصرها ورأسها عني باتجاه الشاويش حتى تداري ما بداخلها فلم تفعل ..

***

وبعد نصف ساعة انتظرها الشاويش بالخارج.. وجدني أخرج بوجهٍ مُمتقعٍ، وقد تبادلت مع الناظرة شحوب الوجه بسمرة سكندرية.. هرب الدم من وجهي خوفًا، وارتفع الدم لوجهها غضبًا، وبين هذا وذاك استنقذ الشاويش المحضر وتأكد من التوقيعين، وجرى في الممر نحو الباب وهو لا يكاد يصدق نفسه.. تبعته باتجاه مكتبي، وأنا أجرُّ قدمي خلفي ..

***

كأنني بشعيرات جسدي تسقط عني.. لم تكن هناك شفرة.. خريف الموت كان.. كان يملأ سلة الخوف حذرًا من جفون الذعر.. لا أريد أن أكون شجاعًا.. فقط وددتُ لو تركت لي اللحظة نافذةً صغيرةً لأرى الشجعان.. ما عدت أنا.. لا كتلة، ولا شكل، ولكن لِمَ كل هذه السكاكين من حولي.. يكفي أن أُغمض عيني ليعود الخوف من جديد.. لا يتكرر.. يبدأ بجدة، وأصالة لا تنتهي.. يأخذني مني فلا يبقي لي.. فهأنا بلا أنا.

أنا.. أنا صخرة جدباء، وهل على الصخر ذنب إن لم ينبت؟!

ألسنة اللهب تلعق حبات عرق تسمَّرت على جبيني.. أفيق من نهايتي لأرى ما آل إليه هذا العالم من دوني ولأسأل هل اكتمل العالم الآن بنقصي؟!

الخواء يملؤني حتى أفيض خيبة.. يُهدهدني اللحدُ في مهدي.. قبل أن يلفظاني معًا إلى اللا أين ..

دقات الساعة الجدارية حفزت لدي بعض الخلايا.. استطعتُ أن أراها عقربًا للثواني يكمل دورات، ودورات حول عقرب الدقائق الذي تجمَّد الخوف في بنيته، فلم يعد يخطو على دائرة قطرها نصف قطر عصي على الهزيمة ..

***

لملمتُ ذرات تشظَّت، وقررتُ أن أرسل مسعدة لتأتيني بها.. كان هناك عمل ورقي يجب أن يتم مثل بطاقة البيانات، والملابسات التي أتت بها إلى الدار، ونبذة مختصرة عن حياتها قبل، وعناوين بعض الأقارب، ولكن هذا كله لم يكن سبب تفكيري في استدعائها، وحين هممتُ بفتح الباب وجدتها تتشيَّأ أمامي ..

كأنّي قد لمحت ابتسامةً على ظلها الماثل أمام خوفي.. أو كأنها ابتسامة من الأساس.. تقول هأنا.. أردتني فكُنت.. أبديتني فابتدأت.. فلا تلومنَّ إلا نفسك بعدها ..

***

4

حضور لا تملك أمامه شيئًا ..

أردت أن أتنازل لها عن كل ما أملك ..

كل ما أملك.. شمسٌ كانت ستطلع لي كل صباح.. فلا أدري الآن أين هي مني.. بل أين أنا منها ..

كل ما أملك. قمرٌ يسامرني.. فلا أدري بعد طغيان حضورها هل سيفعل أم لا ..

كل ما أملك.. هواءٌ يجامع رئتي ولوجًا وخروجًا.. فلم يعد بعد أن ابتلعه ثقبًا في سلويت ظلها الملقى بين السماء والأرض ..

كل ما أملك.. تراب أرض كنتُ سأسير عليه لولاها ..

كان استحضارها في الذهن دعوةً لتَشَيُّئِها في الواقع.. شبيهها الخيالي يستجيب لقرينها الواقعي لتكون هي بينهما.. هي، والخوف.. نصفي الضائع.

جرّدتني أطيافُها من المنطق.. فصرتُ بلا رأس الطين اللازب يعبث بالأطراف في رخاوةٍ عنينةٍ توهن منك ذرات الكينونة قبل الكيان.. تترنّح بينك، وبين من كنته قبلها، ومن ستكونه بعدها..إن كان بعدها من بعد.

أمام حضورها المحيط لا فروق دلالية بين حالاتي.. الخَشْيَة.. الخوف.. الرُّعْب.. الرَّهْبَة.. الرَّوْع.. الفَرقَ.. الفزع.. الوَجَل.. الترتيب هو الدلالة ..

خوف يَشُوبه تعظيمٌ عن علم بما يُخْشَى منه ..

كانت قد بدأت في التحرك نحوي ..

توقُّع مكروهٍ عن علامة معلومة أو مظنونة ..

عتبات غرفة مكتبي تنكمش بين ذراها الجرانيتية القديمة، والكيان يعبر فوقها..

الخوف الشديد.. فكأنَّ المرعوب ممتليء بالخوف..

خطوة واحدة تجاهي كفيلة بتراجعي.. رغم أني لم أخطُ متراجعًا زُحْزِحتُ عن مكاني في عكس اتجاه حضورها ..

شدَّة الخوف وملازمته، وتَصْحَبُه مهابةٌ ..

خطوة ثانية ارتطم ظهري بعدها بظهر مقعدي فجأة.. كيف عبرت مكتبي الخشبي العتيق، ولم أصطدم بظهر أحد الكرسيين عن يمينه وعن شماله.. كيف سُحب لأجلس عليه، وكيف دخل بي ثانيةً في بطنه العميق ..

خوف، واضطراب شديد يبلغ الرُّوعَ أي القلب ..

لم ألمح الثالثة ..

تفرُّق القلب من شدة الخوف ..

تشيأت من جديد أمامي.. لم يتكرر الأمر.. فقط بدأ.. ابتدأ.. تبادى ..

انقباض، ونفار، واضطراب يعتري الإنسان من الشيء المخيف ..

وصمت ..

الخوف، والفزع ..

الاجتماع معًا دلالة أخرى.. توقُّع المكروه، وانقباض النَّفْس لذلك، الشدة، الاضطراب ..

العلم في الخشية بموجبات الخوف، والانقياد، والامتثال ..

هيبة في الرعب ناشئة عن أمر خارق للمألوف ..

اضطراب وضعف في الرهبة ..

إنكار وقلق يصاحبان الروع ..

الفَرَق فيه جبنٌ واضطرابٌ معًا ..

سكون ظاهري في الوجل ..

***

ثم بدأ بالفعل العمل اللاورقي.. بطاقة البيانات، والملابسات التي أتت بي إلى الدار، ونبذة مختصرة عن حياتي من قبل، وعناوين بعض الأقارب!

***

نحوها أجري.. أنسكبُ.. أنْصَبُّ.. أتَصَبَّبُ.. أنسالُ.. أنْطَلَقُ أنْهَلُّ.. أنْهَمَرُ.. أنْهَمَلُ.. أمضي.. أهيعُ.. أُهرعُ.. أهرْولُ.. أهمي أنحدر.. أُهْرَوْرَقُ ..

ورائي هي.. وجود حاضر حولها،وقدمي في أسمنت التلقي.. هناك مَنْ يُراقبك.. سينقض عليك في أية لحظة.. لحظة لن تستطيع أن تتوقف عنها قبل أن تنهيها.. أو تنهيك ..

شعر امرأة على ملابسي، وسريري.. أطياف عرايا.. دفء غير مبرّر في وسادتي.. تهاويم حولي.. لا أتقلّب في النوم.. هناك من يفعل بي.. ذات اليمين وذات الشمال.. رغم محاولاتي الذهنية لا أجدني إلا

أن أكون فريسة ما ومن حولي.. وجود عدمي حاضر للهول.. بقايا لكيانات مشوهة دفعت ثمنًا باهظًا في حياوات مغايرة،وتستقضي الثمن مني الآن وهنا.. يخرقون القناعات الوهمية لقانون الأمن.. تتبدّل المعاني لتصبح مسكونة بسياقات مُخيفة.. تتفكّك الأشياء من حولك ليعيد تركيبها الشر من جديد ...

***

الجمعة 17 يونيو 1921..

قدوم ثان، حلول ثان.. هبوط لا تدري أمن الجنة للعنة استحقها كيان طيفي.. أم من الجحيم لفرصة أخرى قد تخلّصه ولا تخلّصك.. صراعات لاهوتية سريعة التبخر لا شأن لك بها أو بفهمها توقظ ما نام من الغرائز بلا حول منك، تخلق مخاوف الوهم لتلهيك عن مخاوف الحقيقة، تنحرفُ آليات الخوف التي ساعدت الإنسان على البقاء حيًّا لملايين السنين لتصبح غرائبية الكينونة والكيان ..

وبلا داعٍ تدخل مسعدة ..

- ....

- ....

- سي الأستاذ ..

- ....

- يا سيدنا الأفندي ..

تمد حبلًا قصيرًا لتنشلني من هوة سحيقة ..

- في إيه؟!

- في بامية نغرفولك؟!

- ده وقت هزار يا وش الشين ..

- يا أستاذ نحن هنا ..

استدارت في حركة أنثوية غريبة عليها قلبًا، وقالبًا.. فمع صبّ صدرها، وجزعها، وعجزها في قالب واحد لم أشعر بلفتتها المباغتة.. لم يتحرك شيء فيها ولا فيّ.

- إنتي بتصحيني يا كودة عشان تورّيني سحرك الفتّاك، وعينيكي الدوبَّلي، وقوامك الأبصر إيه؟!

تنيّر وجهها الصديء كمن تعوّد على الإهانة، ولم يعتدها بعد.. تحرّك رمشها قليلًا لأسفل.. ثم انتبهت إلى دورها في الحياة ..

مسعدة.. كانت، وتكون، وستظل.. مسعدة.. سيان عندها أن تأتي الإهانة من سليمان الجنايني.. أو من نصحي الطباخ.. أو من عبده ساعي الست الناظرة ..

توقعت مني أكثر من الإهانة، وأقل من الإعجاب، ولم تجد ما تستحقه، ولم يكن عندي لها منه شيء.

- ....

- ....

- المرة دي فيها وغْر ..

- وغْر.. هو مرة لَبَش، ومرة وغْر، والمرة الجاية إيه؟

- نقولولك وما تزعلش!

- اختشي يا بت أومال ..

- ....

- ....

***

كانت قد بدأت في حديثها المعتاد، ولم تتوقف حتى وأنا أدفعها نحو الباب لأُغلقه خلفها لأغيِّر ملابسي، وأتوجه نحو مكتب الناظرة من جديد.. لأجد عبده الساعي يهرول باتجاهي ليستعجلني.. بدا الأمرُ مُهِمًّا بعد ما حدث البارحة.

رجت إلى مكتبها بهدوء..لا مكان لاستفزاز مُتعمّد أو غير ذلك.. حاولت جاهدة أن تنقش ابتسامة ودودًا على وجهها فلم تستطع .. تقبّلت المحاولة كبادرة نية حسنة ..

- ....

- ....

- هانم ..

- اشمعنى!

خرجت الكلمة مني في محاولة فاشلة لتغيير جو الحوار.. الجو ساء أكثر..

بادرة أقوى للنّيات الحسنة.. تغاضت عن الكلمة.. أنزلت نظارتها ذات العدسة الواحدة عن عينها اليمنى، واكتفت بنظرة لوم رهيبة ..

- هانم اختفت من الدار ..

- اختفت؟! هو عندنا حد بيختفي؟!.. ثم مش دي اللي لها قريب صعيدي في زعربانة، وكانت بتهدّد بالهروب إليه؟!

- صح ..

ثم تمتمت في غيظ.. كيف يعرف هذا الذي هو أمامي عن أشياء لا أعرفها؟!

- ....

- .... والعمل!؟؟

- إللي تشوفيه حضرتك.. هو فيه حد بيشوف زيك؟!

عُدتُ للاستفزاز من جديد.. ساديةٌ قذرة أمارسها بين الحين، والآخر.. لسنا أسوياء.

أتت هذه الكلمة على ما تبقى من عُنجهيةٍ لدى المسكينة ..

- مش حضرتك الاختصاصي الاجتماعي ؟!

وبلهجة سكندرية مُصطنعة قالت :

- حنعملوا إيه يا عمونا؟!

- شوف يا غزال.. طالما حنقلبوها إسكندراني فإسكندراني يبقى نستنوا لما حد يبلّغ من أهلها أو ييجي يسأل عليها.. ما جاش حد يبقى هي راحتلهم، وارتاحت، وريّحت ..

- صح يا غزال؟!

- صح يا غزال ..

- ....

- ....

- وعملت إيه في المصيبة إللي عندك يا .. غزال؟!

– لأ دي ما فيهاش غزال خالص ..

تلعثمتُ بعدها، وقلتُ أشياء عن أعمال ورقية روتينية لا بد أن نبدأ بها.. ثم بعض الجلسات.. نظرت لي بشكٍّ جعلني أتردّد في ريبي أكثر فأكثر..ثم أعادت نظارتها إلى عينها اليمنى، ونظرت في أوراقها.. كناية عن انتهاء المقابلة ..

5

حين عُدتُ من عند الناظرة.. مددت يدي إلى كتيب مذكراتي الملقى عن يميني لأقرأ آخر ما كتبت بالأمس ..

هانم!

***

البُكاء وحدك قد يدفع الطيف القرين لاحتضانك.. ما قد يسبب ارتفاعًا في حرارة جسمك ..

لا ينام هو، لكنه يتجوّل في غرفتك بعد نومك وقد يُسقِط شيئًا عن عمد لإيقاظك عندما يشعر بالملل ..

هو لا يبكي إلا مرةً في حياته، وهي عندما يموت صاحبه مقتولًا ..

إذا تشاجرت شجارًا عنيفًا مع أحد، وسقط هذا الشخص مريضًا بعدها بيوم.. فقد ذهب إليه، وانتقم لك منه ..

كُن حذرًا عندما تُنادي أحدًا بعد منتصف الليل لأنه إذا ناديت، ولم تأتِك إجابةٌ من الإنس قد يُجبَر أحد من الجِنِّ بالردِّ عليك، وعندها ..!

عندما يبدأ قلبك بالخفقان دون سبب واضح فهذا يعني أن أحدهم يقف أمامك مباشرة، ويحدّق في عينيك، وأن المسافة بين رأس أنفك، وأنفه لا تتعدّى حبة رمل واحدة..

طنين الأذن.. هو.. يحاول أن يكلّمك..

عندما تستيقظ فجرًا بدون سبب.. فهناك احتمال أنه يراقبك..

يوجد غشاء على عينك يمنعه من رؤية الملائكة، والجن.. يُزاح الغشاء عند الوفاة..

***

لأنّي نسيتني فوق صوتها يهزّني الحنين حين ينبغي أن أكون متماسكًا ..

كثيرة هي الخُطى فوق العتبات بلا أمل في الولوج.. تستثير عزلتي مفاجأةً، تستعجل النهايات حتى قبل أن أشرع، أموت بها قبل أن أحيا،روائحها تثيرني هلعًا ،عِطْرُ الخوفِ عطرُها.. تشعر بأمان موهوم حين يتجسَّد لك الخوف في مصدر واحد مُهيمن.. تترك الهواء خلفها

يتيمًا.. لا يصلح لك أو لغيرك.. أنفاسٌ خجلى تلوذ بها هربًا في عتمة التدثُّر بالمجهول..

جافلًا ألهث أصحو.. دونما المطلق تظل وحيدًا أمام الآخر حتى لو اعتقدت أنك نبي.. مجرد خوف من أن تكون في مكان غير مأمور بأن تكون فيه.. أو مجرد خوف بأن تغيب عن مكان مأمور أن تكون فيه.. يقضمك الكلأ في مرعى الحياة حتى يلوك ساقيك التائهتين.. أجرِّب ملامس ما، ومن حولي.. أتأبط ظلالًا، وخيالات ضوء معتم.. ينسلُّ طيفها في كياني، يتواطأ معها على بقاياي ..

لتبدأ الجلسات الحقيقية.. قلتها لنفسي قبل أن أفتح باب غرفة مكتبي.. لأجدها واقفةً أمامي، لم أملك إلا أن أُديرَ ظهري لتلفحه أنفاسُها البركانية من خلفي.. ظننتُ أني أهرب من عينيها، واهمًا كنت.

البابُ أُغلق وحده، ضوء الغرفة ينحسر شيئًا فشيئًا في مجري عينيها الناريتين، وليغرق الباقي، وأنا معهم في ظلام سجد حتى الإعتام في حضرة ربّته ..

بديعة..

كنت قد همَمتُ أن أسأل عن الاسم لأبدأ عملي وأُدوِّن وراءها..

وحين وددتُ أن أسأل عن تاريخ الميلاد كانت قد قالت بالفعل قبلها..

الجمعة 17 يونيو سنة عشرة ..

في كفر الزيات ..

بعدها لم أهمَّ أو أودَّ أو أطرح سؤالًا، تركت كل شيء ..

وكنت حين تصمت بين الإجابة، والإجابة أعذِّب نفسي بالنظر إلى عينيها في أقل من ثوانٍ معدودة فتكون إجابات أخرى عن أسئلة ثانية لم أعلم أولاها حتى أعلم ثانيتها ..

– أبويا أصلًا من "الرقبة" مركز "الدر" في الصعيد ..

– أمي .. أمي ..

حاولت أن أستفسر في نفسي.. الكلح شرق، ولا غرب؟، ثم الكلح دلوقتي تبع إدفو أسوان!!.

– ما نعرفوش ..

قالتها قبل أن أبوح باستفساري، ولم أكن لأقول شيئًا بعدها..

– قبل كده.. قبل كده كان بيشتغل في وابور الخواجة زرفودلكي النمساوي في كفر الزيات.. مكان أخيه إللي مات بـــ "الزغبار".. (زُغب القطن، والغالب أنه السل).

– أخوه ده كان أول بخت أمي، كان ليّا أربعة.. محمود، وأبو العطا، وفاطمة ونبوية ..

– ماتوا؟!

– ماتوا، وخلاص مافيهاش إزّاي ..

– كان أبويا بيشرب "المترول".. خلطة كده من خشيش على داتورة على جوزة الطيب.. يمكن ده إللي موهم.. كان بيشرب كتير منه بعد ما ساب وابور الخواجة النمساوي، وراح على وابور لاندمان الألماني ..

– ما نعرفوش، ما نعرفوش .. كنا عايشين مع خالتي.. خالتي، وخالي أبو العلا، وستي زينب ..

– لأ ليها اسم طبعًا.. كان اسمها.. اسمها.. اسم بنتها زينب.. اتسمت على اسم ستي..

– ماتت

صاحباها دخّلوها "الوعد".. في حي "الواسعة" بطنطا.

-- ولا قبلين.. مفيش، وبعدين.. إللي جالها جالها، ودخلت الاستباليا في طنطا، وهربت مع جدع اسمه أحمد رجب من "نكلا العنب" مركز "إيتاي البارود" بحيرة ..

-- آه لوحدها.. لأ ما أبي روحناها لما كَمِّلْتْ ست سنين على إسكندرية.. أبويا وَدَّاني عندها..

وقتها أمي، وستي كانوا خدوا ست أُشهر في سجن كفر الزيات في سالفة كده ..

***

وكما وجدها عند الباب فجأة.. وجدها عنده مرةً أخرى.. ليُغلق من خلفها، ولأنهارَ بعدها على الأرضية الخشبية لغرفة مكتبي لا أستطيع حراكًا حتى صباح اليوم التالي ..

***

دائمًا ما أجدني ممددًا على الأرضية الخشبية الحانية في الصباح ..

أصداء تحليلات عقيمة تراوح بين أذني الوعي وعدمه ..

تغيرات تنتاب لون البشرة.. في البداية يتدفق الدم إلى سطح الجلد،وبخاصة الوجه، عرق غزير بنفس حرارة الجسم، وعندما يبرد يسبب انخفاض حرارة الجسم ليتحوَّلُ لون الوجه، والجسم إلى اللون الأصفر بعد اللون الوردي ..

وحين يشتدُّ يستحيل لون البشرة، والأطراف إلى الأزرق المشوب بالصُّفْرة ..

تتفكّك مفاصلي بسبب الجهد الذي يبذله القلب في نقل الدم إلى سطح الجلد.. فسرعان ما تنهار قواي بحيث لا أستطيع أن أحمل جسمي، وتكثر الحركات العشوائية غير الهادفة، وتتسم بالرتابة، والنمطية ..

كل مرة.. يكون من الطبيعي أن أحاول الهرب منها، والابتعاد عنها.. لكنني أبقى مكاني عاجزًا عن الفرار لا ريق ليجف، حبسة مهيمنة.. فإن انتهت خرج صوتي مُرتعشًا لا يستقر في طبقة واحدة.. ثم ينأُ الصوتُ من حيث غاب ليحلّ محلّه الصراخ، والنحيب، والبكاء بصوت مرتفع..

القلب يدق بشدة، وبسرعة هائلة.. شدة التنفس، واضطراب حركته.. بل، ويكاد يتوقف تمامًا.. تقلصات داخلية لا يقف عليها أحد..

لا أستطيع إدراك جميع ما يصل إلى حواسي أو تصل هي إليه وقتها.. الإدراك حينها هو الترجمة العقلية لما يصل إلى مراكز الترجمة بالمُخِّ من إحساسات عن طريق إحدى الحواس الخمس.. فتضعف مراكز الترجمة الإدراكية بالمخ أو يبطل عملها إلى حَدٍّ بعيد في أثناء حضورها، وهذا ما يفسر بعض الكدمات نتيجة الارتطام بأي شيء يقف في طريقي، وأنا أحاول بفشل أن أهرب منها إليها.

خوار في الذاكرة، اضطراب في ترتيب الأفكار، انتفاء المنطق، ونكوص إلى مستوى مُنحطٍّ من التفكير، كلمات مبعثرة بلا نسق ينتظمها، قسمات وجدانية تتذبذب بين الخوف، والغضب، وبين الأحلام وأحلام اليقظة، وشيئًا فشيئًا أُصبِحُ بلا إرادة..

أهملتُ واجباتي تجاه الدار، فما سمح لي طغيان حضورها بعملٍ أو انتظامٍ في شيء .. فقط توجُّس وترقُّب وحرص لدى التعامل مع الغير.

تنتقل إرادتي بين مراحل خمس.. لا تتبع نمطًا بعينه.. تراوح بينها صعودًا، وهبوطًا أو العكس، وبلا تراتبية حاكمة.. الإرادة العاجزة، الإرادة المشلولة، الإرادة المتحررة، الإرادة المتذبذبة، الإرادة المتضاربة.

ينتفي طلب النجدة باللِّسان، ويبدأ بالقلم، وهنا يبدأ الرمز، وعلامات التعجب، والنقاط الكودية بين الجمل، والكلمات لعلَّ من يقرأ يفهم فيُنقذ من كَتب.. إن كان له وقتها به سبيل.. ميكانيزم الإسقاط Projection يبدأ في العمل بلا جدوى.

6

البُعد المكاني عن المصدر ليس حلًا.. كل ما تفكر به يمر عليها أولًا قبل أن يدور في رأسك.. نوازِعُك للفعل تصطدم بأسبقية علمها.. معتزليٌّ أنت، جبرية هي.

تجسيدٌ لمعانٍ لم تألفها مجسدة قبل اليوم.. الظلام، الوحدة، الموت، المرض، الثعابين.. بحيث لم يعد معها مكانٌ لمخاوف نوعية.. من الأماكن المتسعة.. أو الضيقة أو غيرِها ..

تنقلب عندي المخاوف المَرَضية إلى دينية..كائنات روحانية مقدسة،وغير مقدسة.. ربما يكون المطلق نفسه على رأسها..لا أدري.

كائنات روحانية شريرة كالشياطين، والجن، وأرواح الموتى.. هؤلاء هم الأقرب.. ليس لي، وإنما لها ..

ولا يبقى لك إلا نفسك من بعيد تحاول حمايتها دون جدوى.. لتكتشف بعد الحضور الثاني أنك لا تستطيع أن تحمي ما لا تملك أنت، وتملك هي.

***

درستُ في بلاد الخواجات أن صاحب البنية الضعيفة، والأعصاب الهشة، والمريض هو أقرب إلى الخوف من غيره.. لم أكن هكذا، وإن كنت في طريقي حتى أكون.

كان، وما زال وسيظل الخيال دابتي ورِكابي.. لكنها تتحكم فيّ من خلاله، فلا يكون لك في أول رد فعل دفاعي إلا أن تتخلى عن أعزّ ما تملك ..

الخيال.. ذلك الذي ربّيته ليظل بلا كوابح لا تملك الآن أن تضبطه لتتحكم فيه، ولتتغلب عليها في مضماره.. ما كان لك أن تفعل، وما كان له أن يستجيب.

لم يبقَ لي إلا وسيلة وحيدة.. هي العلاج الذاتي.. أصعب أنواع العلاجات.. يبدأ كما بدأت بتعديد جوانب الخوف.. ثم يبدأ من جديد بمواجهة خوفه.. ثم يبدأ تارة أخرى بالإيحاء الذاتي.. – Auto suggestion.. أكرر فيه أني لا أخاف، أتمالك نفسي حين ألاقي حضورها.. أُثَبِّتُ عيني حين تنظر إليّ حتى أُشفى أو يُصيبُني العمى الكامل ..

الأصعب علاجيًّا.. ما قد يعقب ذلك من مراحل للعلاج الذاتي ..
فإن نجحت فيما سبق، ما فعلت فيها.. إذ كيف تُعيد اكتشاف تاريخ
حياتك قبلها لتضع يدك على المواقف التي أدت إلى مخاوفك..

ولكني بدأتُ بآليةٍ بسيطة، وإن كانت مستحيلة في البداية.. ثم
بدأت تكون صعبة.. فممكنة، وهي أُلْفةُ الأمر.

بدأت بتحديد العناصر التي يخشاها من هو مثلي في هذه المواقف،
لم أنجح في تعدادها.. كانت هي فقط.. وحدها ..

ربما هذا ما سهّل خطوةَ الأُلْفة.. تلك التي بادرت إليها حين
صارت ممكنة ..

كان عليّ أن أشحذ أسلحتي.. لم تكن كثيرة.. فقط المعرفة..
مكتبة الطاليان في نهاية شارع شريف كانت الملاذ لي لأحتشد في
معركتي..

الأخت مارثيا سهّلت مهمتي حين رأتني أدور حولها.. حدّثتني
بعربية ركيكة فحدثتُها بإيطاليةٍ شمالية، كنت أرتدي بزةً كاملةً خاطها
لي جان فرانكو روفيللي صديقي الطالياني من مونزه شمال مدينة
ميلانو.. ربما أعجبتها.. أو ربما لم تعد موضة الآن هناك بعد عودتي..
الأهم أنها دعتني لشرب القهوة الإيسبريسو الطاليانية المعتبرة التي
افتقدتُها من سنين ..

حديثي معها طمأنها قليلًا لأن الكتب هناك كانت بالطاليانية، واللاتينية التي أجيدهما.. كانت نظرات الأخت مارثيا على عكس النظرات الأخرى.. لم أعرف لها معنى في البداية،وإن باحت لي في آخر يوم لي بالمكتبة ..

***

لتبدأ الجلسات الحقيقية.. قلتُها لنفسي مرة أخرى قبل أن أفتح باب غرفة مكتبي لأجدها واقفةً أمامي.. لم أملك إلا أن أُدير ظهري لتلفحه أنفاسُها البركانية من خلفي.. ظننتُ أني أهرب من عينيها.. واهمًا كنت.

الباب أُغلق وحده، ضوء الغرفة ينحسر شيئًا فشيئًا في بحري عينيها الناريتين، وليغرق الباقون وحدهم في ظلام سجد حتى الإعتام في حضرة ربَّته ..

بدأت بالألفة أمام جمرتين من نار أوقد عليها ألف عام حتى احمرت.. بدأ اللهب يلحس نور بصري، العصب البصري استنجد بالعصب البصيري فلم يتلكأ الثاني، وأمده بنور ما رأيته داخلي قبل اللحظة ..

***

بديعة حسب الله سعيد مرعي ..

***

الإجابات الثانية القصيرة ساعدتني في تدريباتي للعلاج الذاتي، وفي التحمل لثوانٍ تأتيك فيها الإجابة بينما تنطق هي بإجابة أخرى أوردتها من قبل ..

الجمعة 17 يونيو سنة عشرة ..

***

نهاية ديسمبر من عام 1910م ..

في أبريل من هذا العام أصبح مذنّب هالي يُرى عيانًا في الأرض، وبعدها بشهر واحد مَرَّ ذيلُه قريبًا من المحروسة ..

النار كانت على موعد مع ميلادها ..

اندلعت في هذا العام في صالة رقص بقرية أوكريتوفولبوس المجرية ليموت **312** شخصًا، وبعدها بخمسة أشهر تندلع النيران في المعرض الدولي في بروكسل.. ثم حرائق الحي اليهودي في مدينة شيراز.. ثم حرائق ثورة المكسيك.. ثم حرق عمدي لأربعين ألف شخص في شمال شرق الصين ماتوا من الطاعون الرئوي ..

وأُطلقت النار على رئيس الوزراء المصري بطرس غالي، وموت قاتله إبراهيم ناصف الورداني بعده بأربعة أشهر، انفجار في منجم

للفحم في إنجلترا، ومقتل 344 شخصًا، الحريق الكبير شمال شرق واشنطن..

الأغرب في هذا العام، وهو ما وقع في يدي مصادفةً حين كنتُ أبيت الليالي في مكتبة الطاليان، وهي سكيتشات كروكية منسوخة لرسومات فنان فرنسي يُدعى "جان مارك كوت" وضع فيها رؤية الكثيرين عام 1910 لما سيكون عليه العالم عام 2000 ..

البعض منها يُحتمل حُدوثه، والكثير منها لا يُتوقع حدوثه، ولا يخطر على خيال بشر.. كأجنحة رجال الإطفاء، والمعارك بسيارات لها أجنحة.. أو إنقاذ سفينة تغرق بسفينة تطير في الجو لم يشغلني هذا كله بقدر ما رأيتها في كل هذه اللوحات حاضرةً مهيمنةً طاغيةً مستبدةً ..

اسكتش كامل لبروفايل لها رسمه الرسام الفرنسي، ولم يتحول إلى لوحة فقد مات أثناء رسمه، خطّ قلمه الفحمي الساقط حتى أسفل اللوحة يرسم لحظة السقوط ..

***

كان قابيل.. في البدء كان القتل، المقتول يُسالم لأنه يخاف أن يُقتل.. القتل فِعْل، السلام ردُّ فِعْلٍ.. الخوف كذلك، الإنسان ذئب للإنسان، يستعير ما للربِّ من قُدرةٍ.. يُحيي ويميت.. فإذا أردت الأمان؛ فلتبلغِ الآخر.. الإهمال قَتْل، الإنكار قَتْل، التحجيم قَتْل، النفي قَتْل، القتل قَتْل ..

لا تتجاوز الحيوان الكامن فيك.. اقتُلْ أولًا ثم تجاوز أو لا تفعل.. هو خَالقٌ من خلق الله، اعترافك بالله لا يجعلك تعترف بخالقه.. يبدأ الأمر كذلك حتى تصل إلى أن تقيم نفسك مقام من اعترفت به، وتتولّى عنه الموت ..

شيئًا فشيئًا تسترجع إيمانك بأن الحياة يستردُّها من أعطاها.. حتى تتيقن أنك واهب الحياة.. فتستردها من الآخرين.. نفس القانون لا يعمل على ذاتك..فلا تستطيع سلب حياتك بالانتحار..لماذا تنتحر إذا كان بإمكانك جعلهم يفعلون؟!.

أنت نفسك معلّمكَ، وأنت نفسك تلميذكَ، أنت القاتل، المُفارق المطلق.. حتى وصية لا تقتل في كل الأديان تستثني الحيوان من القتل، رفضك للآخر يترل به نحو الحيوانية.. لا يترل بك أنت!

الربُّ خلقَ الإنسان على صورته.. قَتْلُ إنسانٍ لإنسانٍ آخر هو تعدٍّ على الذات الإلهية ليس صحيحًا.. حتى وإن صحّ.. فأنت تقتُلُ الصورة..إنّ من يدعونه آخر لستَ بحاجة إليه،لا علاقة بينك، وبينه.. أنت.. أنت فقط، والعالم.

هكذا حديث النفس بالقتل..

***

7

الجمعة 17 سبتمبر سنة تسعة..

لا تدري الصبية ريا كيف هجمت سدول الظلام فجأة.. كان الخضار كما هو، لم يقرب فرشتها أحد منذ الصباح الباكر.. نحو نَصبة القهوة تُولي نظرها.. كلما مالت الشمس بعد الزوال؛ تتبادل، وأمها النظرات اليائسة.. لا أحد ..

تُنادي، يخرج الصوت مبحوحًا مشروخًا، وكأنه يقود إلى نتيجة عكسية فينفر المارة منها.. حتى لقد بدأت تتفقد ثيابها، لم يكن ميعاد طمث حتى تظنّ أن بقعة في ثيابها تُنَفِّر المارة، لم يكن شيئًا في وجهها.. فقد ذهبت تلقاء مراية كنيف النصبة لتتبين ما الخطأ فيها؟

ومع غروب شمس اليوم كانت قد فقدت الكثير، وحين ندرت الأقدام حولها همّت أن تقوم لولا أن رأت جناحًا يهيمن ظلُّه على

الأفق، وقد ارتمى على الأرض ليغطي فرشتها، ومجالها الحيوي.. تلمَّست ثيابها، لا تدري لماذا أحسّت فجأة أنها عارية.. كان الجلباب يجرجر في الأرض، وهي مصممة أن تشُدَّه نحو الأسفل لتستر نفسها.. ثم بدأت بشدّ الطرحة لتغطي صدرها العاري المتوهم ..

ثم جاء ..

لا، لم يأتِ هكذا.. انشق الظلُ الملقى على الأرض ..

لا.. انقبض جناحاه، وخرج من بينهما ..

لا..بل تشيّأ أمامها، تكوّن من ذرات سوداء تركها الظل وراءه..

لا.. لا تعرف كيف ظهر أمامها ..

تَحار في عمره.. حين تنظر إلى طوله البيِّن، وقسماته الرائعة تقول شابًّا في الثلاثين.. الشعر الأبيض يزيده عشرين سنة، الكحل في عينيه التي لم تسطع ريا أن تنظر فيهما إلا لثانية واحدة أو أقل ينقص من عمره عشرة.. حتى يبلغ أشده، ويصير في الأربعين،يُمسك عصا عاجيةً عليها طلاسم لم تستبِنها ..

***

– مساء الخير يا شاطرة ..

– ....

– مالِك مبترديش ليه؟

– أنا.. أصل، مش عارفه.. قصدي.. مساء الخير يا باشا..

– باشا ..!

– ما هو مفيش أكتر من باشا تتقال لجنابك يا بكَ ..

– بك! .. لا خليها باشا أحسن.. باشمهندس ..

– باشمهندس!

– آه.. باشمهندس المَحلَج ده.. كل محلج لازم له باشمهندس ..

– اسم الله عليك حارسك، وصاينك.

-- ....

وكما تشيأ.. تلاشى.. تلفّت ريا حولها فلم تجده، طافت أسباعًا بين الفرشة، والنصبة حتى نادتها أمها ..

-- مالك يا دي البت؟

-- ماليش يا أمه.. هو فين ..؟!

-- هو مين يا روح أمك؟

-- الأفندي.. البيك.. قصدي الباشا ..

-- أفندي، وبيك، وباشا.. ده إنتي السَمس كلت راسك يا موكوسة.. على العموم فيه حد عند فرشتك.. إجري ليكون زبون ..

-- ....

***

-- إنتَ رُحت فين.. جنابك.. جنابك رحت فين؟

-- أنا موجود ..

-- إزاي ..

-- المهم .. اسمك إيه يا جميلة ..

-- جميلة!

- اسمك جميلة.. ده اسم لطيف خالص.

- لأ.. أبي بنستعجبوا من جميلة.. أبي جميلة؟،ده أبي ريا .. شكلك محتاج شيشم لعينك الحلوة يا باشا..

- طب يا ريا الجميلة.. بكام الخُضار؟

- طلبك إيه يا باشا؟ أنهي صنف؟

- كُله ..

- إيه؟! كله! أبي جايباه من عبد الهادي الخُضري الصبح بخمسة ريال.. جنيه وريال يعني يا باشا ..

- ....

- بس ما يغلوش عليك يا جنابك ..

- ....

- همه بس مفرفرين من السمس..خُدهم بجنيه واحد..جنيه بس..

- ....

- خدهم والسلام وكل اللي يجي منك.. قصدي من جنابك كويس ..

- طيب يا ريا.. خُدي دول، وهاتِ المَشَنَّة كلها بالخُضار اللي عليها للاستراحة بتاعتي .. آخر المدق إللي ورا المحلج ..

- ياخد عدوينك يا باشا.. كام دول؟؟ دول خـــ مـــــ ســـــة جنيه.. يا لهوي.. ده أني ما مسكتهاش عمري.. مفيش فكة في البر ده كله للورقة دي ..

- ما تلزمش الفكة.. دي بتاعتك.

- بتاعتي.. كلها؟!

- كلها، ولما توصّلي الخُضار الاستراحة ليكي عندي هدية تانية..

- إلهي وانت جاهي يعلّي مقامك كمان، وكمان.. الله يعمر بيتك، واستراحتك يارب ..

- ....

اختفى ثانية ...هذه المرة لم يعد، عادت ريا بنظرها إلى الورقة في يديها.. نقطة لعاب سالت من فمها المفغور عن آخره قبل ساعة، لملمت شعاث ما تبقى منها، ومَضَتْ تجري بالمشنة والميزان نحو أمِّها.. الخيش خلف النصبة، حطّت المشنة، وأدخلت الميزان، ودسّت الجنيهات الخمس تحت جوخة منامتها ..

خرجت مسرعة بمشنة الخضار نحو استراحة الباشمهندس، لم تُلقِ بالًا لنداءات زينب الأم خلفها.. كان نداءً آخر هي محله، هي له.. منذورة منذ الميلاد لهذه اللحظة، لهذا الاستقبال.. كادت تقع أكثر من مرة، تعثّرت في فردة شبشبها القديم، خلعتها، عرجت بالثانية..

خلعتها، دارت حول سور المحلج لتتفادى خروج العمال، الطريق أطول، يطول، لا شيء سيمنعها.. المشنة تزن سبعين رطلًا أو تزيد، الظهر مستقيم، والرقبة راسخة كعمود مصبوب بين كتفين من حديد..

انتهى السور عن يمينها، انعطفت يمينًا نحو نهايته.. أصبحت خلفه الآن، وبثمالات آخر ضوء لشمس تغرب على سواد استبانت مدَقًا يتلوى نحو المجهول، وحين غابت الشمس، وهجمَ الليل اشتعلت جنبات المدق نارًا حين بدأته.. أو حين بدأها تملكتها رعشة لم تعرفها، أصابها الوجيف، والرجيف معًا.. الأول اضطراب القلب فرحةً، والثاني اضطراب القلب خوفًا ..

انتصر الثاني

كأنه لا ينتهي.. المِدَق، وبلا مقدمات كادت تصطدم بسور خشبي وَطِيء، وقبل أن يلامسها.. امتدت يد لتفتحه.. يد معروقة وقد استطالت أناملها، وأظافرها السوداء.. لم تلتفت لصاحبها، رعدة خفيفة مقارنةً بما مضى.. لا تدري ما سيأتي، المدق صار ممرًا حجريًا تتخلله عُشبات سوداء غريبة ..

عند العتبات تُحَطُّ الأوزار ..

من خلفها هذه المرة.. امتد ظلٌ مهيمن ألقته أضواء المشاعل أمامها، أخذ المشنة بسهولة، وكأنها لا تَزِنُ شيئًا، وحين حاولت

الالتفات ظهر هو من جديد في عباءة سوداء زادته ألف عام، اتسعت عيناها حتى كأن المحجرين قد اتسعا ليستوعباهما، أشار بيده نحو الباب الضخم فانفتح دونما فاتح ..

ولجت نحو صحن الاستراحة المكشوف.. المشاعل تحيط بالصحن، وفي الوسط كعبة من نار تطوف حولها كيانات غير محددة، أطياف منذ الأزل، وهي كذلك ..

وكان سكون

هدأ كل شيء حولها لتجده أمامها على فِراش أسود، وقد أحاطته النار إلا موضع دخولها إليه.. كان هو على الفِراش، زاغت عيناها، وكأنها مسلوبة الإرادة برغبتها، بدأت تقطع ملابسها قطعةً قطعة.. هيستريا سَتْرِ العُري قبل ساعات؛ انعكست الآن..قطعة قطعة، وكأنها تتعبد في مناسك تُقربها منه.. شعائر لا تنتهي إلا عند آخر قطعة..

نظرت في تأمل لجسدها البَضِّ الفاتن.. أعجبها.. الذات تدري مكامن اللذة، وقبل أن تمتدَّ يدها كان قد ضمها إليه.. يد على كتفها قادتها نحو مسار النار حول الفِراش.. كيف حلَّت أنامله ضفائرها.. لا تدري، فتحت مسامها، وأغلقت عينها، وارتمت في ظِلِّ جسده.. في هوة سوداء بلا قعر.. فقط هي ..

لا فقط هو .. هو وحده.

***

نشوة غريبة أخذها في سِنَةٍ من اللذة، وحين امتلأت شبقًا ورغبةً.. فتحت عينيها لتصرخ صرخة مدوية ..

رأت سيدها على حقيقته ..

أي عبادة تلك التي يصرخ فيها العابد حين يرى المعبود..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

قالتها ليختفي كل مَنْ، وما حولها، وتهوي فجأة على كومة عشب جافٌ أصفر.. المشنة تقع على رأسها، وتتدحرج مكوناتها، وقد ملأها الدود في كل موضع.. ثعابين، وحيات انشقت عنها الكومة الصفراء الجافة.. صرخت ثانيةً بقولها:

- يـــــاااررب.

لتصحو بعد ثلاثة أيام على جوختها، وفي خيشها،وحين رأت وجه أمها تحسّست ثيابها لتجدها عليها.. فتغيب بعدها ثانية في نوم هذه المرة..

***

8

سُلطة الخوف تستلزم آمرًا ومأمورًا وأمرًا، أُضيفُ.. التراضي فحين تخاف تدخل في علاقة خوفية بينك، وبين مصدر الخوف ..

سُلطة الخوف غير التسلط بالخوف،وغير السلطان كما أنها تختلف عن السيطرة ..

التسلُّط بالخوف هو انتحال للحق في الأمر من دون تبرير.. أو من دون تبرير كافٍ، ومقبول..أو هو تجاوز لحدود الحق في الأمر، وهنا يغيب التراضي ..

سُلطان الخوف هو القدرة الفعلية على التأثير بالرَّهَب في النفوس من دون التزام معين.. بحيث تصبح مطيعة لما يأتيها في العقل أو في الوجدان أو في العاطفة، وكما التسلط آفة السلطة يكون التسلطن آفة السلطان.. فعل تجاوز، واستغلال، واصطناع مقصود.. فالمتسلطن

هو من يحاول استخدام سلطانه لترسيخ دونية من له سلطان عليه، واستغلاله في سبيل مصلحته.. لذلك يقع نوع من الترادف بين التسلط، والسيطرة التي هي الإخضاع المفروض بالقوة، وتسخير الأضعف لأغراض الأقوى ..

***

لم أكن في حاجة إلى أريكة كي أكمل معها، لم أكن أسبر أغوارها.. حاشاني أن أحاول، ولا أتكشف عالمها الداخلي.. هيهات أن أدخل، ولا أفكارها، ولا مشاعرها المستقرة في الباطن.. درستُ في إيطاليا كيف يتألف عقل كل إنسان من ثلاثة أجزاء، وهي:

«الهو».. أو منطقة الرغبات اللاشعورية، و«الأنا العليا».. أو منطقة القيم المكتسبة، والشعور، و«الأنا» أو المنطقة التي تنعكس فيها تصرفات المرء بشكل أكثر مباشرة.. التنافر بين الأجزاء الثلاثة تاريخ المرء، وماضيه يلعبان دورًا مهمًّا وصراعات الطفولة التي تُركت دون حَلٍّ يمكن أن تؤدي إلى الاضطرابات النفسية ..

***

عن نفسي كنت أتحدث .. تلك النظرية تنطبق على الإنسان .. .. من هي أمامي الآن .. ليست كذلك.

***

في جلسات التحليل النفسي يطلب الطبيب من المريض أن يصف ما يفكر فيه، وما يشعر به في تلك اللحظة من خلال أسلوب يعرف باسم «التداعي الحر»، والذي يبدأ فيه المريض المستلقي على الأريكة في سرد ذكرياته، وآلامه دون أي توقُّف أو محاذير، تحت ملاحظة المعالج النفسي الذي يُراقِبُ أسلوبه، واستخدامه للألفاظ التي قد تعكس أسلوب ذلك المريض في مواجهة الحياة، وحل المشكلات.. كانت الجلسة مزدوجة على نحو غريب، كانت تنطق كلمات، وتحكي مواقف، وكان يستقرُّ في وعي كلمات، ومواقف أخرى ..

استماع المحلل النفسي بما يعرف باسم «الانتباه العائم المتساوي» لم يمكن في حالتها.. أي دون أن يركز انتباهه بشكل مباشر على شيء معين،ويحاول التعرُّف إلى النماذج المتكررة للسلوك والتفكير والشعور.. كانت هي التي تقود الجلسة.. لست أنا.

زيادة في الشعور بالتعب، والإرهاق.. اقتراب من زيادة الهلاوس السمعية، والبصرية، فُقدان الذاكرة بشكل مؤقت وسائط كيميائية، وبيولوجية، وإمكانيات أخرى حتى تصل إلى القمة المتوهمة، هلوسة قوية، ذروة الليل ..

***

في كفر الزيات..

– عشة عفنة رطبة من البوص العطن.. تضمُّ أمي وأبي وخالي ..

***

وكنت حين تصمت بين الإجابة، والإجابة أعذّب نفسي بالنظر إلى عينيها في أقل من ثوانٍ معدودة فتكون إجابات أخرى عن أسئلة ثانية لم أعلم أولاها حتى أعلم ثانيتها ..

-- أبويا التاني أصلًا من "الرقبة" مركز "الدر" في الصعيد ..

-- ....

-- التاني!

-- ....

– أمي.. أمي ريا بنت علي بن همام، وبنت زينب بنت مصطفى.. من "الكِلْح" سوهاج ..

قبل كده.. قبل كده أبويا كان بيشتغل في وابور الخواجة زرفودلكي النمساوي في كفر الزيات.. مكان أخيه إللي مات بـــ "الزغبار".. (زغب القطن، والغالب أنه السل).

– أخوه ده كان أول بخت أمي ..

كان ليا أربعة .. محمود وأبو العطا وفاطمة ونبوية ..

ماتوا

***

ومضة لا تستغرق الثواني ..

رضيعة شارفت على الفطام تزحف باتجاه خديجٍ لآه ..

العينان واليدان لا تتوافقان مع الكائن الزاحف، جمرتان من نار، وكُلّابتان من حديد ..

محمود .. لم تمضِ على ولادته أيام عشرة من عام 1912 ..

يوم الجمعة 17 مايو 1912.. الموت يزحف باتجاهه، الجدة في نصبة القهوة على الرصيف قرب المحلج في كفر الزيات، الأم تفرش بالخضراوات على الرصيف المقابل لأمها، الأب في المحلج والخال أيضًا قبل أن يستقر الخال بالأخير خلف نصبة القهوة مع أمه..

شفتان ما فارقتا الثدي بعد تزمّان على غضب ما كان ليقارب قلب فطيم على وشك ..

تقترب أكثر.. لا يزال محمود يُحدِّق في سقف العشة، أشعة الشمس تُلاعب عينيه البريئتين، يغمضهما فجأة ..

تقترب الفطيم من الرضيع أكثر، يمتدُّ إصبعها الصغير ليطفئ عينه اليمنى.. تتشنج أطرافه وتضطرب حركته..

تُعيدها في اليسرى.. ثم تستدير في بطء مستفزٍّ لتهبط فجأة بظهرها على رأسه، تدفع قدميها الصغيرتين لتُكمل انكفاء ظهرها وإحكام ثقلها على رأس محمود، تكاد ركبتاه تلامسان صدره في انفعالهما تحت الوطأة ..

تستمرُّ حتى تمام السكون، وكمال الموت، وحينها تبول في ارتياح غريب وابتسامة أغرب ..

***

-- كُنا عايشين مع خالتي سكينة، وخالي أبو العلا، وستي زينب ..

-- بنت خالتي كان اسمها زينب.. اتسَمّت على اسم ستي، الجمعة 17 يناير 1913.. ماتت.

***

-- صاحباتها دخّلوها "الوعد"، واتسجلت في نقطة طنطا (نقطة للمومسات) تبع "عايقة" (الضامنة أو مديرة بيت البغاء) تخينة كده من طنطا، وشغلتها ضمن "المقاطير" (المومسات) في حي "الواسعة".

-- ولا قبلين.. مفيش، وبعدين.. اللي جالها.. جالها، ودخلت الاسبتاليا في طنطا، وهربت مع جدع اسمه أحمد رجب من "نكلا العنب" مركز "إيتاي البارود".. كان ممرض في الاسبتالية.. شك فيه الحكيم العمومي إنه بينام معاها ففصله، اتجوزوا بعد خروجها من

الاستبالية لغاية ما الحال ضاق.. فرجعت للوعد مرة تانية بعلم جوزها..

– ما نعرفوش راح فين.. سمعت إنه سافر يشتغل مع الإنجليز، واتلمت خالتي، وأمي واجوازهم، وسكنوا مع بعض ..

– لأ .. ستي زينب، وخالي أبو العلا فضلوا في كفر الزيات ..

– آه.. بعدها خالتي بقت لوحدها، وأبي روحنالها لما كمّلت ست سنين على إسكندرية، أبويا وَدَّاني عندهاكانت بتتجمع مع المقطورات في ساحة بكير ..

– لأ.. بكير.. مش ماكاريوس ..

– لأ برضه شارع علي بك الكبير.. كان شارع أحرار ..

– قبلها أمي، وستي كانوا خدوا ست أُشهر في سجن كفر الزيات في سالفة كده ..

***

تم القبض على ريا، وأمّها بسبب إخفاء مسروقات سرقها حسب الله وأبو العلا من محل الخواجة بولس جرجس في 16 فبراير 1916، وقضوا الحُكم بالكامل..

معروف أن من سُجلت في ملف جنائي في أي قضية لا تُسجل دعارة على الإطلاق لأنه يفترض في المهنة ألّا تكون لها أي سوابق قانونية..

***

- الوعد.. مهنة الدعارة.. مهنة مُرخّصة لخالتي.. أمي لأ..

- بيت الوعد، وتُديره العايقة..

- لأ.. ممنوع في البيت ده شُرب المخدرات أو شرب الكونياك، والويسكي من الخمور، ولا لعب القُمار..

– رُخصة خالتي كانت بتتعرض على الحُكَما في الاستبالية الأميرية،وفي يوم الكشف الأسبوعي المعتاد طلع عندها المرض السري، وتم حجزها في الاستبالية في طنطا سنة 16 ..

***

وكما وجدتها عند الباب فجأة، وجدتها عنده مرةً أخرى.. ليُغلق من خلفها، ولأنهارَ بعدها على الأرضية الخشبية لغرفة مكتبي لا أستطيع حراكًا حتى صباح اليوم التالي ..

9

كل ذرة فيّ تخافُك، ترتجِفُ، تُمُدُّ يدها نحو الأمان فتظنها تستزيدك خوفًا..

تقفل رموشها على أسرار لتحرقها في أتونٍ عبثي.. غُزلة الرعب تهرب باتجاه الفوضى، والنسيان..

العتبات الباردة الهادئة تصير حلمًا حين يعزّ فراش الأمن.. طقس ليلي يتكرر كل ليلة.. تُمُدُّ ذراعيك في الهواء لا لتمشي في نومك، وإنما لتنقاد في وجل نحو ما أردته واستعذبته.. طلبه لوعيك، وأنكره مكابرًا وعي كاذب.. قضبان جليدية تحمل قطار الجنوب نحو الصيف فتحترق، وتحمل قطار الشمال نحو الشتاء فتتجمد.. ثم تموت، وفي يدك التذكرة الخطأ في الاتجاهين.

خلية نحل تعمل ذرات الخوف، وحين تطلق ملكتهم رحلتها الأخيرة لا يبقى في صدرك متسعٌ لذكور تلهث خلفها..فتهرول أنت، ولستَ بنحلة ..

قبل أن أضع قدميّ على دركاتك نازلًا، وقبل أن أصعد بأحلامي على درجاتك لا أكون، وإنما أصبح وقتها.. أصير.. ماذا.. لا أدري، وإنما أفعلُ.. أفعلُ وحسب.

التنصّت على الأبواب لا يجعلك تدخلها.. اعتراف منك بأنك على الجانب الخطأ من الغرفة ..

مجبولةٌ من طينٍ ناري.. إنْس جِنِّيَّة ..

وحين تصبح الهاويةُ هُويةً لا يكون أمامك إلا السقوط في نار الطين لتحترق وتغور.. غريزة البقاء كسلى لا تسعف من تردّد في ريبه، أصابعها النحيلة تخطُّ أتراح القدر، رعبها ظِلٌّ لهولها.. أو العكس.. لتتشظّى بعد الاثنين بين التمزُّق، والثقوب على منامات الهراس.

تتسلط على أعناق الروح فيسقط لحم وجهي على عيني ما بين طين، ورهبة.. الليلُ فيها لا يفوق النهار، الخوفُ واحدٌ في الاثنين.. باردٌ في الاثنين، وفوق عتبة سلطان تهاويم النوم تأتيك كوابيس اليقظة الناعسة فلا تملك فكاكًا.

باردةٌ هي تلك العتبة التي تبقيك عليها لا بين خوف ورجاء، وإنما بين موت وخوف، ولربما كان الأخير أخف وطأة.

الصُّبحُ يسارع بالهروب، أسرابٌ من أطياف ليلية انتهت لتوِّها وردية عملها الليلي معي لعلها تلحق بتعيس آخر في بداية الليل عند الجهة المقابلة من الأرض.. أسير نحو مصيري، يقطع سكينها بكارة أستاري وأسراري ..

– ماذا كانت لتفعل لو كان لها قضيب؟!

رمادية شوارع الإسكندرية تثير الكآبة في نفسٍ تحترق، رفاهية أن تكتئب بينما تحترق، وفي الأفق التعس الذي أطل عليه بين قضبان غرفتي تناظرني غيمة سوداء على شكل سلويت لها ..

أين تذهب في الأرض إذا كانت السماء عليك؟!

الشارعُ جُرْفٌ قارِّي لا يدري من يسيرون فيه بحاله، ولا بحالي.. في لحظة سيسقطون، وعندها لا تنفع السباحة من يعرفها.. فقط تتثاءب الفجوات الكالحة لتنهش ما بقي من أجساد الغرقى المنتفخة..

لا تتعاطف مع من كان يعلم العواقب ..

غابات شعرها ضمّت كل حيات ميدوزا، زادت بوحوش ومحاربين يقفون على تخوم صحراء الجبهة الصدئة، هلالٌ محترقٌ يحاول عبثًا أن يحيط بأتونٍ محجري النار، الأنف مع العينين يمثلان جهاز إشارة

لمخلوقات غير مرئية حولها.. تحسّ وجودهم ولا تراهم..كائنات فرّت من الموت، تشرب الرمال، وتتغذى على الحجارة، تكاد تزحف بين أحلامها بلا كلماتٍ آمرة، ولا حتى ردع داخلي ..

كانت تتملكني تمامًا نحو المجهول، أهربُ نحو الأفق من جديد.. الغيمة السوداء استحالت غولًا يقترب، انكمش ظِلّي على الأرضية الخشبية،أوشك أن أقع في هاوية الجرف القاري وأنا بعد لم أمسّ حافة الشارع.. الطيفُ المهيمن يعود من جديد، لا صوت أقدام.. حضور يملأ الذرات مني ومن الغرفة في آن، يستوطن،لا يستعمر.. يستخرب، ولا يرحل، وكأني أحمل قنينة رمادية بين يدي كفن رمادي أدكن .. وأنظر حولي فلا أجد دموعًا أو مناديل وداع ..

***

البنداق.. نفر المراسلة لليوزباشي محمود عمر قبودان.. عود من القصب المصوص مربوط ببعض شرايين، وأوردة مهترئة لهيكل عظمي بارز خلف بشرة سمراء ..

بُندق.. كما كنت أناديه عندما يعود في الليل ليشرب، معي الشاي الصعيدي في الفناء الخلفي للدار، كان يتسلل عبر فتحة في السور المتهالك المُطِلّ على الممر الشرقي، يقطع المسافة من سجن الحضرة، وحتى الدار على درّاجة قديمة تمنت لو أحالها إلى الاستغناء.. كان يروي لي قصص بطولاته الفريدة التي فاقت بطولات اليوزباشي نفسه.. لتبدو القصص كلها متمحورة حول نفر المراسلة ..

– ....

– أومال يا أفندي.. نفر المراسلة ده زي الحمام الزجّال "الزاجل"

– هكذا قالها – ..

– ...!

– ده فيه سلاطين وقعت بسبب موت حمامة من دول ..

– ....

– طب هوه سعادة البيه اليوزباشى أفندي يعرف يعمل حاجه من غيري؟.. يا أخي دي هده ..

– ....

– آخرها، ولا مؤاخذة أسرار العصابة الرهيبة دي كلها عندي ..

– عصابة إيه يا بُندق؟

– بنداق.. مش بُندق.. بس نقولوا إيه.. علام بلاد بره وحش .. بُندق.. بُندق.. المُهم يا أفندي إنك ها البات مش عايش في إسكندرية بقى.. العصابة..

– أيوه .. عصابة إيه؟

– إللي بتخطف النساوين ورا كراكون اللبان، وتدفنهم في بدروم كده ..

– آه قريت خبر صغير عنهم من كام يوم ..

– خبر صغير.. طب ده الجورنالجي قعد يتكلم معايا تلات تربع ساعة ..

-- وإنت سمعت عنهم فين يا بُندق.. قصدي يا بنداق؟

-- ما هو أني واصل برضك يا أفندي وليّا ناسي جوّه كل جُحر وشَق فيكي يا إسكندرية ..

-- كده بس ..!

-- لأ، وبرضك الأفندي اليوزباشي إللي شغال معايا..قصدي اللي أني بنشتغلوا معاه.. لأ إللي أنا وهوه بنشتغلوا مع بعض..حلوة دي؟!

-- هي إيه إللي حلوه ..؟

-- ما تاخدش في بالك يا أفندي.. صُبّ دور تاني إحيات أبوك ..

-- ....

-- هو كان الضابط المكلف بحراستهم في سجن الحضرة ..

-- سمعت إنهم 2 ستات بس ..

-- لأ.. ما هو إللي ميعرفش يقول كده.. ستتين إيه؟! دول تمانية، والله تمانية.. تلاتة بالله العظيم تمانية.. تحب نسموهملك يا أفندي؟

-- صادق يا بنداق.. مش ضروري

-- لأ.. طب عشان مش ضروري بتاعتك دي حنسموهملك نفر نفر.. عندك يا سيدي المدعوة ريا.. حلوة المدعوة دي ياد يا بنداق يا واصل.!.

– إيه؟!

– ما تاخدش ف بالك ..

– .....

– قُلنا كام لحد دلوقتي ..

– واحدة بس ...

– يبقى نبدأوا م الأول.. المدعوة ريا، والمدعوة سكينة.. آدي الستين إللي أمثالك من الأفنديات يعرفوا عنهم بس، لكن نفر المراسلة مننا يعرف دبّة النملة في البلد دي ..

– ......

– قُلنا كام لحد دلوقتي؟!

– يااارب يا بتاع الغلابة يارب.. اتنين

– يبقى نبدأوا م الأول ..

– ......

– يبقى نبدأوا م الأول.. المدعوة ريا، والمدعوة سكينة، وعبد العال، المدعو عبد العال، وده طلع جوز واحدة من الستين دول.. مش بنقولولك نفر المراسلة يعرف أيّتها حاجة ..

– ....

- قُلنا كام لحد دلوقتي؟!

- تلاتة.. تلاتة يا سَقيل.. حتقول الكلام على بعضه، ولا تقوم من هنا؟

- يبقى برضه نبدأوا م الأول..

- ....

- المدعوة ريا، والمدعوة سكينة، وعبد العال، المدعو عبد العال، وحسبو، وشكير، وعرابي، وعبد الرزاق، والصايغ إللي كان بيشتري من العصابة دهب القتيلات اللهم احفظنا ..

- ....

- ما نقوموا نعلقوا على دور تاني يا سيدنا الأفندي؟!

- لأ قوم روّح يا بنداق زهّقتني، وما قلتش حاجة ..

- ....

***

10

أي الركامات تختار لتبني مدينة النجاة.. بأي الأطلال تبدأ.. الصحارى الرملية العاقر لن ينبجس منها إلا الخوف، الركام يحتشد كشاعر أمام قصيدة عصية.. همجية الذكريات السوداء لا تتيح لك الفكر، الفعل ينعدم من الأساس، وكثورةٍ أكلتْ أبناءها تأتي هي على نهر حياتك حتى تتكوم الأشلاء على الضفتين القاحلتين لتستحيل أنت ذاتك إلى هاوية مخيفة تبتلع الضحية الوحيدة.. أنت.. بعدها يعيث سوسها في عظامك النخرة ليصنع من عظامك قضبان سجنك، وكلابشات قيدك الأبدي.

***

محمد عبد العال.. فتوة الريف المصري قبل أن ينهار منحنى القوة مبكرًا كسائر شباب القرى، بعض من وسامة قدٍّ ووجه وطول رموش يسندها تأنق قروي ساذج، ولكنه يؤتي ثماره مع بعض الفتيات، يطوي شوارع الإسكندرية بحثًا عن بنات الهوى، وكثير من الفتيات اللواتي يَنقدن لوعود الشباب، اشتراطات مسبقة للفرائس تحكم عملية الاختيار، لمعان الذهب تنتفض له رموشه الطويلة فتحسبُ الجاهلاتُ أنه ربما يغمز لهن.. فتسهل المهمة قبل الشروع فيها، بدأ ببعض الرومانسية التي قلما خابت، ولكنها كانت تأخذ كثيرًا من الوقت، والمال.. حتى وصل معه الأمر أن يوميء لإحداهن فقط برأسه جهة المنزل حتى تتبعه.. دونما تحيات أو حديث مسبق،الوقت أصبح يداهمه، ومن ينتظرونه لا يرحمون.

كانت ريا تَغار في البداية، ولكن العادة تُطفيء العاطفة، وتُميت القلب الميت من الأساس.. حتى تَلَفُّتُهُ، وهو يجرّ ضحيته إلى مذبحها؛

تُفسّره الأخيرة أنه اهتمام بها، وتشوُّق لما سيلقاه من غرامها.. فتقع أكثر حتى إذا خنقها كان تحصيلًا لحاصل من قبل ..

وما إن يدخل بها الوكر الكئيب حتى تتلقاها ريا وسكينة، ويستأذن هو لتوضيب القعدة، وما إن يخرج حتى يرتكن على جدار المنزل، وعن يُساره حركة دؤوبة حول كراكون اللبان، وبطريقة يعهدها يعمد ببطء لجيب معطفه ليُخرج علبة "لاكي سترايك"، ويتمهل في إخراجها حتى تأخذ العملية وقتها، يميل برأسه إلى الوراء قبل أن يُشعل اللفافة ينتظر صوتًا تعوّد عليه.. حتى إذا سمع صرخة مكتومة أشعلها سريعًا ثم يعود للتمهل في نفث دخانها حتى تغيب صورة الضحية متسربة بين حنايا دخان ما يلبث حتى يزول.. ثم يمضي باحثًا عن فريسة أخرى ..

قابلية السقوط لدى بعضهن ساعدته كثيرًا، الانحراف الجنسي الذي مُورِس منذ بداية التاريخ سهل، وبسيط.. يكفي أن تدعها تعتقد أنك لن تدفع لأنك غير الرجال الآخرين، وأنك تحبها.. فترقى في عينها، وترقى هي في عين نفسها..فلم تعد ساقطة، وإنما ارتقت لتصير عاشقة، وبسم هذا يكون خلع آخر قطعة من ملابسها أيسر من خلع أولها، وما ارتبط السقوط بأماكن بيع أو ممارسة هذه المهنة مثل الشقق، والأحياء، والمواخير أو علب الليل، وأماكن اللهو، وممارسة الرذيلة إلا مؤخرًا..

ومن زمن العبودية القريب انحدر التاريخ بالأنثى من زوجة إلى أَمَة إلى مِلْك يمين.. إلى أم ولد.. إلى مُستبضَعة تبغي الاستبضاع من سيد قومه أو غيره.. إلى شقّارة.. تُستبدل كبضاعة بحيث يأخذها رجل كأخت لرجل، ويأخذ ذاك أخته.. ثم يكون السقوط - والذي بدأ قبل كثير من الأصل - أوضح .. فتُصبح ساقطة تتمايل لتغوي، ولكنها لا تتعرى، ينتهي الإغواء بإنفاقه عليها، بكأس من الخمر أو قليل من عشاء.. الحواجب والعيون والشفاه تلعب دورًا أكبر هنا ..

ثم يستمر مُنحنى الانحدار الحاد لتكون عاهرة، وهي البغي المُرخّص لها.. فتم أول تسجيل للبغايا في مصر في القرن السابع حيث جرى التسجيل في مقر الصوباشي أو رئيس الشرطة.. حتى الباشا محمد علي نفسه؛ أبقى على ضريبة البغاء بعض الوقت ثم ألغاها عام 1837 ثم بدأ البغاء في الخضوع للتسجيل، والتنظيم منذ تطبيق اللائحة التي سُميت بتعليمات بيوت الدعارة، والتي استمرَّ العملُ بها حتى اليوم..

وكانت قد صدرت لائحة التفتيش على العاهرات عام 1885 والتزمت البغايا بمقتضاها بالتسجيل، وإلا عوقبن، وكن يُقسمن إلى قسمين "عايقة"، و"مقطورة".. العايقة هي القوّادة، والمقطورة هي التي تُمارس النشاط، وأمام اسم كل من بنات الهوى كان يُكتب سِنّها، وسكنها، ورقم رُخصتها، وتاريخ الكشف الطبي عليها..

أما المومس فهي الفاجرة جهارًا، وهي من ماست، وتبخترت، واختالت، وتعمل غالبًا لدى قواد يتولى تسويقها، ولها عدة وظائف في الحانات حيث تُقدم الخمر، وتُسامر السكارى، ولها عمولة على ما تغريهم به من شرب الخمر، وتُسمَّى في مصطلحهم "لعوب الخمارة"، وقد تتصيّد زبائنها من الشوارع، وتُسمى "سكّاكة"، وهي أقل البغايا شأنًا، ولا تختار زبائنها، ولا تُدقّق في السعر،وسلوكها ترصده عساكر الدَرَك في شوارع الإسكندرية، وحواري المحروسة، والمومس أعلاهن أجرًا،وقد تختصُّ بعض البغايا في المصابين بالأمراض النفسية كالسادية. والماسوشية، وتتجنب بعضهن المباشرة،وقد تقتصر لعوب الخمارة على القول الفاحش، وقد تُمَنِّي الزبون بعدة طرق باليد أو غير ذلك من طرق الإغراء، والاستعراء، وقد تستعرض الجماع أو الإغواء، وخلع الملابس بشهادة الحضور..

وكثيرًا ما سألت نفسي.. أيهما أسبق البغي أم الديوث؟

في مطلع شبابي لم يثر السؤال أصلًا..فالصبي يبدأ ملتصقًا بالأنثى/ الأم ثم ينفر منها في مرحلة الصبا، وبدايات البلوغ.. ثم ينجذب إليها في المراهقة.. ثم ينفر لبضع سنين حتى ينجذب لمؤسسة الزواج لا لشريكته فيها.. ثم ينتهي به الحال إلى الالتصاق بالأنثى/ الزوجة..

تبرئة الرجل واجبة، ولكن إجابتي عن هذا السؤال الآن لن تخرج عن أن الديوث أسبق على البغي.. كلاهما يبيع نفسه،ولكنه هو وحده

الأسبق في البيع.. ثم يعزف عنها، ويُبالغ في مظاهر الرجولة.. فيرتدي الضيق من اللباس ليبرز قوته، ومسوغات وظيفته.. ثم يُربّي شاربه بطريقة مبالغ فيها، وهنا يتحوّل من ديوث إلى قوّاد يدفعها إلى ممارسة البغاء ليستفيد منها، وقد يدفعها إلى غواية الآخرين دون أي شعور بالغيرة ..

الدوافع تتعدّد في ممارسة البغاء، وإن كانت كلها ثانوية.. فالسقوط قرار،وحين يتم؛ يبدأ القوّادُ قبل البَغي في البحث عن دوافع يُكرّرها حتى يصدقها.. الدوافع المادية من فقر، وانخفاض مستوى الوعي، والثقافة، والتدنّي الاجتماعي كلها زائفة.. الأكثر زيفًا يتمثل في التمزق الأسري أو الطلاق أو انخفاض المستوى المادي، وضعف الوازع الديني والأخلاقي أو انعدامهما.. الأسباب النفسية، والعضوية، والوظيفية من الفصام واضطرابات الشخصية وإدمان الخمر والمخدرات، وربما السجائر.. فشراهة البغايا، والمومسات للسجائر هو نوع من العشق السادي للقضيب.. أي الرغبة فيه مع القضاء عليه فتدوس عليه بقدميها بقسوة في ارتباط لا شعوري بذلك، ولكن البغي مثل أي امرأة تهفو إلى الحب، وإلى أن تكون محبوبة ..

وقد يكون هذا أحد دوافعها للبحث عن ذلك أو الانتقام من صورة الرجال في صورة الأب الغليظ أو الزوج القاسي، وكلما زاد تورطها في دنيا البغاء يزيد شوقها إلى من يحبها بحق فتدور في دائرة

مفرغة، وقد تجد الحب الزائف عند عشيق هو نفسه قوادها يُشبع عندها الحاجة إلى الحب، ويدفع عنها أذى الطامعين، ويضفي عليها حمايته ..

ومنهن " العنينة " التي لا تنفعل جنسيًا، ولا تبلغ الأورجازم.. فتطلب معاودة الرجل لها، ومن الممكن أن تُباشر أكثر من عشرين رجلًا تباعًا دون مشقة أو تعب ..

السقوط يتطلب نموذجًا معياريًّا ثابتًا عاليًا يضطربن باستمرار لاستمرار وجوده.. فالأسرة المتماسكة، والزوج المخلص هدف للتحطيم فيأتي استغلال الرجال المتزوجين جنسيًّا على يدي – أو على ثديي – البغي،وكذلك تعمل آليات التجنيد الدعاري.. بمعنى إدخال شريفة، ويا حبذا عذراء في الوعد.. ثم وباكتمال السقوط لا يكون بعد القاع من قاع..

فتأتي الجريمة.

***

11

في زاوية حناياي المُرتعشة.. يتربَّعُ إيوانُها على استحالات هندسية أن يتربع كيان على زاوية.. النهايات تقبع في زاوية أخرى تنتظر إجابات عن أسئلة لم يجرؤ أحد على طرحها..

لا أعرف حياةً تستحقُّ عناء قرار العيش..صُنعًا،واتخاذًا.. لتأخذها من تقنعني أنها صاحبتها.. تغضَّن الخوفُ على ملامحي.. كل ما حولي يتحرك فلا أجد وتدًا أربط عليه أمتعتي، وخيالاتي السابحة.. المُتحركون يمرُّون عليّ يُخرجون لي ألسنتهم ثم يفوتون عليها لتدمغهم بخاتم الرهب.. أي جدوى للخوف حين لا ملجأ، ولا منجى؟!..

أي نفع للصياح حين تلتفُّ حِبالُك الصوتية مشنقةً حول رقبتك النحيلة.. لا معنى لشيء..

ترنو الطيوف حزينةً إلى الليل، وتحلم بانعتاق النهار.. ظلالها على السرير ضيوف ثقلاء لا يمنحون إلا الوحشة رغم الأنس الدامس حيث يهجر الغرباء آخر أوطانهم.. اقتصادات الإنتاج الكبير، وقوانين الوفرة تعمل في سوق الكآبة.. الربح فيه يغري بالمزيد ..

كأني بمنقذين يقتلعون قدمي حين تشتكي سنون الحصى.. حَوَلٌ بالقلوب قبل العيون، يمسكون لساني بجتزير، ويشبحونها على جانبي شفتيَّ حين صرخ الساذج من الخوف ..

لسوف أصرخ في أذني حتى لا تستبيحني المسامع.. رعشة.. فاختلاجة.. فموات إلى الأبدية يسير الغرباء، القريبون تموت ذكراهم إلى الأبد.

البارحة أيقنت أني لا أحلم.. سطوتي الماضية على الخيال، والواقع تنحسر نحو الخيال.. حتى إذا أتيته لم أجده شيئًا، ووجدتها عنده.

بنظرة مُطمئنة من صياد محترف كانت تنظر إليّ تُخبرني عن وقت خُروجِ السَّهمِ، وعن وقت دخوله لا لأستعد، وإنما لتسعد هي.

أُلمِلمُ بقاياي، وأمضي في رحلتي الانتحارية، وعند البقعة المعلومة لي، ولها.. أُغلق عيني، وأفتح صدري، وأنتظر ألا تخيب الرمية.

الوعي الشقي باللاوعي.. التغذية الاسترجاعية تعمل هنا نفس العمل فيحترق الأول، وينطفيء الثاني، وهكذا حتى الرماد ..

لغزٌ ذلك المجهول.. فما بالك بالمعلوم الملغز؟!

تخاف مما لا تعلم فكيف إذا خُفت مما تعلم، مما تأمن؟! تتصدّع أعمدة الأركان، وتنهد فوق زواياها المستباحة في طقس طرد للأوهام السكونة في رأسٍ خَرِب ..

الذُلُّ كل الذُل إذا تعدّدت مصادر الخوف.. العز كل العز إذا توحّدت.. الأعراف بلا ذُلٍّ وبلا عِزٍّ إذا لم تعرف ..

***

من ذا الذي منعته شجرة من ثمارها.. لا تُدميها حجارة تُقذف، ولا حتى فأس تقطع.. ما يُدميها أن يد الفأس منها ..

مثل هذه لن يُدميها إلا يدها.. لن يقضي عليها إلاها ..

تُساكِنُني كأنها أنا، تُزامِنُني، وكخريف يقف الشتاء خائفًا على عتباته الصلعاء أمضي نحوها بلا إرادة.. لكن الوعورة تصبح سِرًّا للاستمرار، للاقتراب.. هامش مُتخيَّل لحرية موهومة تغتصبها عثرات واقعة.. لن تلمح لافتات التحذير..

غرور المعرفة الحمقاء تُسلبك ذاتك الواعية تنطبع على صفحة رجهك بوجوم.. مأخوذ بها، ومأخوذ لها، وفيها.. فتنة تصيب بها من تشاء حتى هاوية الموت، ومن عُدْم القبور في إسكندريتك تجعلك قبرًا لك.

تيارٌ باردٌ كالموت، دوامَّة الأفكار تتلوى بك نحو القاع.. لستَ مضطرًّا للاستغاثة.. الغَيّاثُ هو من يديرها.. ليس أمامك إلا أن تصرخ في سبيل النجاة.. أو أن تصمت في سبيل النجاة.. ستموت.. ستموت، ولكن إما أن تموت صارخًا أو أن تموت صامتًا.. رفاهية الاختيار المقيت تعتمد على ذاكرتك في الحياة.. هل عشت تصرخ في وجهها.. أم عشت تصمت في حضورها.. ستموت على ما عشت عليه.. لو كان لي الاختيار لاخترت أن أُغيّر هذا النمط الجبري.. سأصرخ في الموت بعد أن عشت أصمت في الحياة.. لن يكون هناك شيء بعد أفعله.. لن أندم مثلًا ..

صرخة تفوتُ وأنت تموت ..

لن تخاف من أثرها على غيرك.. فلن يكون غيرك، ولن تكون أنت.. من يهبني بضع دقائق أرى فيها الأرض بعد الرحيل.. بضع ثوانٍ.. ليس لي أحد لأتابع حُزنه على فِراقي، ولكني أريد أن أرى الحياة كم ستكون جميلة من غيري.

تهاويم الأعراف تستجلي الغد الغائم، العمى يسود.. فلا يتماهى السواد إلا مع الظلام في غفلة من شروق مظنون.. خريف ليس للعمر، وإنما للحالة.. بحيث يمكن أن تجد هذا الحوار..

– مالك؟

– لا مفيش.. خريفي شوية؟

- والعمل؟

- شوية ونشتّوا.. أو شويتين، ونصيّفوا.. أو تلاتة، ونربيعوا.. كده يعني..

***

بعد اختفاء هانم حدث ما هو أغرب..

فجأة تغيرت الأسماء في الدار.. حتى كدت بالتكرار المُتعمَّد أنسى الاسم السابق على الحالي، وحين تعود إلى الأوراق لا تجدها.. أو لو تجد ما يفيد ..

نظلة، عزيزة، زنوبة، أنيسة، نبوية البيضا، سليمة، نبوية السمرة، فاطمة، وآخرهن فردوس.

***

البنداق يعود كلما كان خرمانًا لشاي أو لمال.. يحكي، يروي، يسرد، يمارس دور المُهم للحظات، ويُثاب عليها ..

***

– مش أبي قعدت مع شكير، وحكالي حاجات كده؟!

– شكير مين؟

– شكير مين! شكير بتاع العصابة يا أفندي ..

– آه ..

– يعني ما سألتنيش حاجات إيه؟

– حاجات إيه يا بندق؟

– طيب شوية شاي، والنبي يا أفندي، وإنت وذوقك بقى.

– حاضر يا سيادي .. صدّع الأفندي

– بيقولك المسائل بدأت في السهل كده، وكانوا ناويين،والنية نية سواد يشيلوا الجثث بعيد عن الدار بس خافوا ينكشفوا ولاد الكلب..

– طب وهوه اسمه إيه ده ..

– شكير يا أفندي.. عنّك الشاي.

– اتفضل .. شكير ده بقى دوره كان إيه؟

– يعني إيه دوره؟

– يعني كان بيعمل معاهم إيه؟

– كان معاهم.. بيقتل معاهم .. دور إيه وهلفطة إيه يا إخواتي ..

- ....

- المهم يا أفندي الولا شكير ده مستنور، ودماغه لعاليط ..

- لعاليط ..

- آه.. أومال ..

- ....

- شكير المستنور.. راح منوّرهم بفُكيرة كده ..

- فُكيرة إيه يا بندق؟

- حفر قبر تحت البيت في بدروم الدار، ويدفنوا المجني عليهم فيه..

- ......

- عجبتك "المجني عليهم دي"؟!.

- ....

- حاكم محسوبك قانونجي مستنو.. قصدي قانوني متنور.

- ....

- مفيش دور شاي تاني؟!.

- فيه.. كمِّل الأول.

- حبيبي يا أفندي.. أصل وكر العصابة كان ورا كراكون اللبان عدل..

- يعني لو الباش أفنديات الضباط كانوا مستنبهين كانوا سمعوهم..

-- والباشمهندس كان فين؟.. ما كانش مستنبه ليه؟

-- أني.. آه.. لأ.. قصدي كنت واخد بالي بس الحس الأمني بتاعي قاللي يا واد يا بنداق استنى شوية ..

-- شوية .. كل الجتت دي وشوية!

-- ....

-- ....

***

وتمضي بلا أرض لقدميك، وبلا طين أنت منه، وهو منك.. ثقلُ الهموم يرتق اهتراء وجهك ليتهرّأ من جديد تحت وطأة القادم.. يا ويلتاه لو تدري آذان الخلق ما بي من صراخ لاشتكت الفقد، ولأوقدت على القلوب تفتنها بنار المواساة فيخرج الخبث شوقًا، ويذهب الزبد جفاءً ..

أراه.. ذلك الشخص الذي هو أو كان أنا..تحوّلت جُدران الغرفة إلى حدود جغرافية فاصلة، يُحدّق، يغمض عينيه.. ثم يعود ليُحدّق من جديد كأنه سيكتشف حدودًا مختلفة الجدران، يستعرض حدود دولته شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، جيئةً وذهابًا.. فوق سقف الغرفة الرطبة يقع العالم، تحته لا شيء.. فقط سرير، وكليم يدوي قديم،الوقت يكاد ينقضي وليس وراءه.. أو أمامه من شيء ..

***

12

انتقالُ روحِ شخصٍ إلى شخصٍ آخَر بحيث يمكن للشخص المتقمِّص أنْ يتذكَّرَ تفاصيلَ حياة الشخص المتوفَّى.. هو تعريف التقمُّص كما درست في بلاد الفرنجة.. كما لا يزال يُطلق عليها البعض ذلك الوصف القديم،ولكنني عارضتُ أستاذي فيه قبل سنوات، وارتكز اعتراضي على مفردات التعريف في أنَّ الذاكرة تتلاشى بعد الموت فلا يمكن للمولود مثلًا أنْ يتذكَّر حياة سابقة لغيره.. كما أنه من التناقض القولِ بانتقال روحِ شخصٍ إلى شخصٍ آخر هو الآخَرُ له روح أساسًا.. كما سيتناقض هذا التعريفُ مع فكرة العدالة ومع قانون السببية.

التعريف الأقرب وجدته في كتاب كان على رصيف شارع النبي دانيال بين المنشية، ومحطة مصر،ويقول الكاتب الذي نسيت اسمه كما ضاع الكتاب، ولم أنس هذه الفقرة:

"إنَّ التقمُّص (العَود للتجسُّد) فكرة فلسفية تشير إلى عملية بقاء بعدَ الموتِ الفيزيائي يقوم من خلالها مبدأٌ لا ماديٌّ وفرديّ ("مبدأً حيوي" أو "وعي فردي" أو "طاقة" أو "كينونة فردية" أو "نَفْس عُليا" أو "جِسْم عقلي أرفع") بإكمال رحلته عِبْرَ حيواتٍ متعاقبةٍ تفصل بينها فتراتُ راحة (موت)".

هذا الفعل يهدف إلى تسديد رصيده الكارمي وتفتُّح وعيه وسعيه نحو الكمال؛ وفي كل حياة يأخذ هذا المبدأُ الواعي شكلًا ماديًّا فيزيائيًّا جديدًا خاصًّا به من عناصر الأرض متناسبًا مع درجة وعيه، أيْ يلبس ثوبًا أو قميصًا ماديًّا جديدًا؛ ومنه سمِّيت هذه الرحلةُ بـــ"التقمُّص"، أيْ ارتداء النفس العليا العاقلة (المسمَّاة بـــ"الفردية"، في مقابل "الشخصية" أو "النفْس الدنيا") لقميصها الجديد الذي فصَّلَـــتْه هي بيديها وعلى مقاسها من خلال أعمالها السابقة وذلك بعد اهتراء قميصها المادي القديم.

كنتُ أُعارض أيضًا تلك الصوفية التي ترى الكائن البشري ينطوي على سبعة أجسام أو هياكل أو بُـــنَىً أو مَرْكبات أو مستويات طاقة أو طبقات أو أغلفة أو حُجُبٍ أو مبادئ؛ وتتمثل هذه

السباعية في الانتقال مرتَّبةً من الأخفِّ الأشَفِّ إلى الأثقل الأكثف..
لكن ما إن يمضي بنا العمر أبعد، وأبعد حتى تُراجع ما رفضت، وتألف
ما قد قبل أنكرت ..

فحين تُقارِبُ حياتك أن تنتهي ولم يُرفع ظلم وقع عليك، ولم تلقَ
جزاء الحياة الدنيا الذي يستحقه عملك الحسن، وأخلاقك النبيلة..
عندما يحدث ذلك كله تتحرك حاجة الإنسان الاجتماعية، والنفسية
إلى العدالة لتدفعك إلى الإيمان بتطوير فكرة التقمُّص لإحقاق العدل
خاصةً بعد رصد عدمَ تحقُّق العدل في الحياة الواحدة ..

وهنا لن يكون الأمر خوفًا من الموت هو ما وراء فرضية التقمُّص،
وباقي العقائد الخاصة بالأخرويات.."الإسخاتولوجيا"..حين تكون قوةَ
الحاجة لا قوةَ الفكرة هي ما تدفع إلى اعتناق الفكرة مهما تكن هذه
الفكرةُ سطحيةً، وحتى سخيفة.

***

أراني كوازيمودو في رواية أحدب نوتردام لفيكتور هوجو، وقد
أنشأتني خلقًا آخر.. آليات النكوص لا التقمُّص، الأنف الصلب ذو
الوجوه الأربعة، وذاك الفم الذي يُشبه حدوة الحصان، وتلك العين
اليسرى الصغيرة التي يسدها حاجب أصهب أشعث بينما كانت العين
اليمنى مختفية اختفاء كاملًا وراء ورم شديد الضخامة، وهذه الأسنان
المنخررة المتكسرة المفلولة،والمنتشرة هنا وهناك في فوضى ظاهرة كأنها

شرفات الحصن،وهاتيك الشفة الجاسية على علتها سِنٌّ من أسنان الفم فبرزت إلى الخارج كأنها نابُ فيلٍ.

"لقد كانت التكشيرة هي وجهه.. بتعبير آخر، كان شخصه كله تكشيرة".. ليُصبح الخوف وجهي، وفي صيرورة متبادلة تتشوه النفس حين تكون في جسد ناقص.. ثم ينقص الجسد بتشوه النفس..ثم تتشوّه بنقص النقص. وهكذا ..

الصديق الخيالي تخلقه الطفلة من خيالها.. حين خلقتني من ذرات خوفي لم أعد خياليًا إلا لها وحدها، الآخرون كان يرونني .. هكذا بتُّ أقنع نفسي أو أقنعتني هي أنني غير مرئ.. شيئًا فشيئًا أصبحت بالفعل.. فلم أنضُ عني لا ثوب الخيال،ولا ثوب الطفولة، وبتُّ أُراوِح بيني وبيني، أنا وأنا، الخوف الذي يلزمني لأموت هو ذاته الطفولة التي تلزمني لأحيا..

ترتب شذراتي فتسلبني ضياعي في الخواء، وحين لا يكون هناك مكان لشيء.. أجد نفسي.

تمامًا ككلبٍ ضالٍّ قتله الخوفُ قبل أن يدهسه أوتوموبيل شارد.. الصدمة الأولى هي الجناية.. هي الذنب.. هي الألم،ما بعدها من دهس باقي الأوتومبيلات يُعدُّ معروفًا حتى يساوي أشلائي بأسفلت الطريق..

لن أتعلم الحياة حتى أموت.. فإذا متُّ سقط العلم،والحياة والموت معًا ..

ربما لم أعش عصفورًا.. لكني أخشى الموت بلا أجنحة.

هكذا أنا.. لن تستطيع أن تُحدِّث طفلًا عن أمِّه.. سيفتح فمه لالتقام الثدي الشهرزادي، ضرع يختصر الدنيا، لن يسمع حديثك أو يقنعه منطقك، ارتعاشات الحلمة نحو مسافات بعيدة وحدها تُقلقه.. أشياء صغيرة تخلق عالمه.. دخولك يمتنع ..

لن يتكيء الأطفال على أكتاف الغرباء حتى وإن كنت أنت.. أنت.. طفل الأمس، وطفل اليوم، وطفل الغد.. أيهم لن يعتمد على أيهم، لن يرقص أحد على قدميّ.. عطش لا ينتهي،أتفتح فيه كشراقي الطين في بلادي،أتمدّد فاتحًا فيّ ليقذف قضيب الخوف سُمَّه في جوفي.. الغريب أنني أدمنتُ العطش.

كل ما ارتضيته يومًا صار موضعًا للتساؤل من جديد، الوحدة كانت إزارك ورداءك.. ما إن دخلت هي في معادلتها حتى دخل الخوف في الطرف المقابل. كان الانعزال ثريًا بالخيالات والتهاويم، والبوح الذاتي بلا حدود.. معها؛ سكن كل هذا إلى الأبد، ولم يبقَ لي إلا الخواء.. ملعب الخوف الممتد هولًا، الرعب ليس في خيوط الوجل العنكبوتية، الرهب كان من انقطاع حبل الرجاء.

كيف ترى ذاتك بعد أن رأيتها؟!التصبح مبتور الأصل، والفرع لا تستطيع متابعةً لنفسك فلن تسمح لك أن تكون طرفًا في علاقة معها حتى وإن بُنيت على الخوف..التجريد يمتنع، التجرد ممكن ولكنك غير قادر، انقطع بها حبل الزمن فلا قبل ولا بعد، معرفة الإيطالية في أيام البعثة احتاجت لخطٍّ زمني تتراكم فيه الحروف، والكلمات والتعبيرات والصور والتركيبات والقواعد حتى تكتمل اللغة.. أما معرفة نفسك؛ فينقطع فيها حبل الزمن فق.. دون دخولها كعامل حفّاز..فعندما تنتفي حُريَّة العقل بالخوف تستحيل معرفة الذات بالقلب، ضلالات الكهف، وظلاله هي التي ستبقى لك وحدها،ولن تخرج منه لترى نور الحقيقة ..

سينتفي الشكل، وسيبقى انعكاسه، سيختفي الموجود وتسود إسقاطاته لتصبح اللغة سجنًا أبديًا لا فِكاك منه. أتلفَّت حولي.. المكتب، الباب، النافذة، أشياء حبستها اللغة في ذاتها ما دام قد أُطلق عليه مكتبًا سيظلُّ كذلك إلى الأبد ..

وكذلك أنت.. عندما كنت مخلوقًا فيما قبل الإرادة كان السجن أكثر رحابة، ثم تسعد بالإرادة ذلك الإنجاز العلماني المحض لتُصبح إنسانًا فتبني أسوارًا أضْيَقَ حول ذاتك.. ثم تأتي الضربة القاضية من أبويك فيعطيانك اسمًا لا دخل لك فيه، ولا اختيار.. هنا يكون العزل وسط المعزولين، أما حين تصبح فريسة للخوف يكون السجن انفراديًّا بحقٍّ.

الناس مثلًا يفرِّقون بين الجامد، والحي، بينما الأمر يختلط عليَّ.. إذ ما من جامد يبدو لي كل شيء حي.. أعظم حكمة عندي هي القُدرة على تأمل الحياة فيما هو ميت والموت فيما حي.. فقط جئنا لكي نذهب، من جديد، وبينهما يكون الخلق، وبه تكون مخلوقًا.. ثم تكون الإرادة، وبها وحدها تكون إنسانًا حتى بالإرادة تواجه ما تقذفه الدنيا في وجهك منذ الميلاد .. الموت.

حتى وعود العلم بإكسير الحياة، وبخلود الأرض.. ثم وعود المطلق بخلود السماء جنةً أم نارًا.. لن يكون لكل ذلك معنى.. مع الخلود ستشتعل الإرادة كعود ثقاب لمرة واحدة.. ثم تنطفيء إلى الأبد.

13

عُملة صدئة بوجه واحد، صورة باهتة على الجانبين،الكتابة انتفت منذ زمن، فهيهات أن يتم إثباتها.. كانت تستجدي سطورها المُعوجَّة، وهي تلفظ حروفها الأخيرة قبل أن يمد الموت يد النجاة.. لماذا أستدعيها الآن، كيف لفانٍ أن يبعث مثله.. سرمدها الأخرس عصيٌّ على الاستنطاق عند عتبات التعبير.

أتوارى في قلب جدار لُذْتُ به كخيار أخير.. أَشُدُّ مزلاجًا خلفي من بقايا جأش تولّى لأمدَّ إلى الأحلام سُلَمًا.. ثم أُلقي بنفسي من فوقه علّني أصحو ..

لن أستطيع أن أتحدى شيئًا لا أستطيع تحديده ..

الاستسلام.. هو الفعل الشجاع الوحيد ..

لن يكفيني الإنكار كي أجحد الهول، ولن تكفي المعرفة كي أؤمن بفزع اللا فوت.

كانتا أول امرأتين تحكم عليهما محاكم الجنايات في مصر بالإعدام شنقًا، وهنا المُعضلة.. ماذا سترتديان؟ البدل الحمراء كانت تخص الرجال وحدهم، وجاءت فكرة الجلباب الأحمر للنساء..

يومان متتاليان للمتهمين السبعة.. في اليوم الأول أُعدم ريا، وسكينة، وعبد العال، وحسبو، وفي اليوم التالي أُعدم شكير، وعرابي، وعبد الرزاق ..

حكاوي البنداق لا تفي بالغرض.. الخيال يسعف ليكمل الناقص فيَّ وفي المشهد ذاته، وحين أبدأ في مد حبل الخيال أجِدُ البعيد وقد حَضَرَ ..

بنداق، ولكن ليس وحده هذه المرة.. كانت تسير أمامه امرأة بخطوات عسكرية، وهو يلهث بصعوبةٍ ليلحق بها.. ترتدي (ملاية

لف) كأنها ثوب قماش أسود كامل، وقد فرده القَمَّاش على جسد عملاق على غير عادة النساء في الإسكندرية ..

(الملاية اللف) كانت لا تزيد في أقصى الأحوال عن مترين.. هذه كانت تزيد عن ستة أمتار.. الكتفان قد عادتا بعرضهما إلى الخلف لا لتبرزا الثديين الضخمين النافرين وإنما ليحمل الظهر جذعها الثقيل، البطن على غير عادة جسم كهذا كان ضامرًا.. الأرداف تتهادى في غير اهتزاز، لمحتها حين استدارت لتحكم لفَّ الملاية حين اقتربت مع البنداق، وحين أكملت لف الملاية تلفتت هي لتجدني متلبسًا بمتابعة المشهد.. لم ألمح في عينيها نظرة دهشة أو عتاب أو لوم. ولا اعتياد منها.. كانت نظرتها تعني أكثر من ذلك، لم أستبِن لها معنى،وإن كانت كفيلة لتنهمر قطرات العرق على جبيني المرتعش.. ثم تسقُط على صدري حين انهار عنقي ليتوارى برأسي في تجويف صدر لا يسعف في الاختفاء .. نظرة البنداق المتابع فهمت معناها بسهولة.. تركها عند الباب، وتقدم نحو مكتبي.. كنت ما أزال في خيمة صدري التي لم تسترني كافة، وحين اقترب أفقت كأني أنظر للمرة الأولى ..

***

– نهارك سعيد يا سيدنا الأفندي.

– سعيد مبارك يا سيدي ..

أومأت إلى باب المكتب ومنتصف الممر حيث تقف السيدة الرائعة..

- خير؟!

- خير طبعًا.. ده أني وش خير، عُمريش جت لك إلا في خير؟؟

لم أرد.. فخاف بندق أن يكون صمتي تشكيكًا في كلامه.. فتلفّت نحو الباب، ثم عاد إليّ وكأنه يستجديني أن أُعلي مقامه أمام ضيفته ..

- ....

- كده ولا مش كده يا سيدنا؟

- كده يا بندق.. قصدي يا سي البنداق.. اتفضل..

كلمة "اتفضل" كانت كلمة الإنقاذ..جلس على الكرسي بسرعة، وقد فرد ظهره في خُيلاء ملقيًا نظرةً جانبيةً نحو الضيفة التي لم تحرك ساكنًا ولم تكن تنظر نحونا من الأساس، لم يدع اليأس يحكمه.. فأشار إلى الكرسي الثاني عن يمين المكتب، وبإيماءة منتشية إلى السيدة ..

- اتفضلي يا فوزية ..

حدَّجته السيدةُ، وقد وقفت فجأة في منتصف الطريق ..

- قصدي يا ست فوزية.

والتفت إليّ بعد أن اطمأنّ إلى أنها تقدّمت نحو الكرسي،كانت تميل بجذعها العالي على المكتب الذي حدّت حافته بين انحناءات جسدها الرائع في قوته، رائحة فُلّ بلدي كانت تخترق قلبي قبل أنفي، لم تكن تنبعث من خلف أذنيها فقط، وكأنها تحممت في منقوع فُلّ أبيض، وغاصت بتلات الزهر في انحناءاتها المغوية.. الزيت العطري لم يتطاير.. تغلغل في مسام الجلد منتظرًا أن تأتيني هذا الصباح ليخرج مهرولًا نحوي حتى كأني به يتعداها إليّ..

ثم أفقت من جديد على صوته الرفيع المرتعش ..

– الست فوزية زينة ستات الورديان ..

– يا أهلًا يا ست فوزية .. خير يا رب؟!

– أصل الحكاية .. إن..

وهنا مالت بقوامها المتسامي نحوي فانتفض بنداق، وتعطّلت الكلمات على فمه المتحلّب، وانكمش في زاوية الكرسي ..

– العبارة يا حضرة.. إن أختي فوقية كانت متجوزة،والبعيد مات..

– البعيد مين؟

– البعيد جوزها!

– آه .. يعني كان مسافر ومات بره؟

– مسافر إيه؟ وبره إيه؟ بنقولوا مات ..

ثم التفتت إلى بنداق متعجبة من مفهومية الأفندي إللي جايبني عنده ..

– ....

– البعيد.. يعني جوزها اسم النبي حارسك يا بو المفهومية.

– البعيد.. يبقى جوزها.. طب أنا يخصني إيه في الستت فوقية، وفي البعيد جوزها ..

– جايالك ..

"جايالك".. قالتها فإذا بي أنهار من داخلي، أذوب انتظارًا لمجيئها الواعد..

– تعالي ..

"تعالي".. قلتها كما ينبغي لها أن تُقال ..

لمحت مكنوني بنظرة منها.. شيء ما اعتمل داخلها.. لم أستبنه أيضًا هذه المرة ..

تحاملت، وأكملت

– البعيد جوزها، ولا ما هو إيه غار،وسابلها أورطة عيال،وهي لا بإيديها ولا برجليها.. قلنا نشوفوا نقدروا نعملوا معاها إيه ..

- مين إللي يعملوا؟!

- جايالك ..

- تاني!

- نعم يا سي الأستاذ!!

- قصدي اتفضلي .. اتفضلي تعالي.

- الجمعية الخيرية الإسلامية، وجمعية المساعي الخيرية القبطية

- إشمعنى!

التفتت إلى بنداق في حدة، وكأنه هو الذي قالها.

ووقفت .. وقفت .. ووقف معها كل شيء.

- قصدي مالهم يا ست فوزية؟

أعادت لف الملاية، وهلّ ربيعٌ ثانٍ.. ثم هدأت ..

- ....

- ....

- الجمعيتين دول بيساعدوا إللي زيها يعني ..

- آآه

- ....

-- طيب يا ست فوزية أني منعرفوش حد في الجمعيتين دول، وحياتك عندي

-- إيه ..؟!

-- قصدي، وغلاوة بنداق عندي.

-- المقصود مش كده يا أستاذ.. المقصود إنهم طالبين ورق.. ورق اجتوماعي ..

-- نعم؟!

- اجتوماعي..ورقة كده يخطها واحد مستنور زيك بتلم كوبية.. أو فحم، والنبي ما أني فاكرة.. مش الباشمهندس يبقى سي الاستخصاصي برضه؟

- بحث اجتماعي

- اسم الله على مقامك.. بحث اجتـــ.. بحث إللي إنت بتقول عليه ده.

بخبث شديد.. استغربته أنا ..

- طيب يا ست فوزية.. يا ريت تديني اسم أختك بالكامل، وقسيمة زواجها من البعيد، وشهادة وفاة البعيد كمان،وأسماء الأطفال، وعقد الإيجار إللي ساكنة فيه، والمشيخة التابعة ليها.. ممكن تجيبي لي المعلومات دي، وتجيلي بكره زي دلوقتي، ومفيش داعي تتعبي البنداق أفندي معاكي.

فهمت جملتي الأخيرة فقط، ولم يفهم بندق ..

ثلاث نِعَمْ محرومٌ منهما كثيرٌ من الناس ..

الفهم في أوقات ..

وعدم الفهم في أوقات ..

والقدرة على فهم الفارق والتوقيت بينهما.

***

14

يُقال إنه عند بوابة معبد تاييس في روما كان ينتصب تمثالٌ لامرأة منتقبة من رأسها حتى أخمص قدميها، تحمل بين يديها لوحًا نُقش عليه:

"أنا إيزيس ذات الجلال... تلك التي كانت وما زالت وستبقى إلى الأبد... تلك التي لا يكشف نقابها حيٌّ...".

"سيدة الأفراح والأتراح" ما إن تضعها عند اللقاء الأول في هذه الخانة حتى تنفي هي نفسها بنفسها.. بل تنفي الخانة، ولا يبقى أمامك سوى تشيُّؤ "ست" ذاك الكيان البارد الذي انقطع بمشيئة الألوهية عن جذوره.. ذاك الذي كان الأجمل، والأقوى بين الآلهة حتى.. سقوطه..

سقوطه.. أو سقوطها عليّ.. تُرى أين كان مكاني في القاع حتى تسقط هي عليّ؟

لكِ الهول .. يا من أنتِ.. أنتِ .. سيدة انتحار الضوء، خالقة ظلال الأعالي، وخالقة الخفاء في الأعماق ..

لكِ الهول.. إلهة الموت، وربة الأموات، سيدة آباد الخوف، صانعة ارتعاشات الرهب، مسقطة الدمعات على أنهار خدود الأرض، طاردة الملائكة من درب فم الصالحين.. يا من تستصرخها الأجداث، ويسبحها النشور.. مرشدة العالم السفلي.. ربة الموضع الخفي.. أولئك الذين رقدوا ينهضون لرؤيتك.. يشتاقون لإتباعك، يتنفسون أنفاسك الثقيلة، وينظرون إلى محيّاك حين يصعد إلى الآفاق.

هم بسلام ما داموا يخافونك.. هم في سكرة ما داموا يشاهدونك يا حامية الأزل.. أمن تلك الغياهب تشرقين؟. وتسيحين ولا تأتين؟ مبهوتين خلفك تتركين، مفتونين من وراءك تُلقين..نحيا لكي ننتحب.. نعيش لنندب مستسلمين .. ظلال بلا قوام .. آلآن ترضين؟!

لم يعد للموتِ بُعدٌ سرّاني.. قلبي معي لم أرتكب ما تحرِّمه الآلهة فلا أنكسرنّ هناك.. فلأنتصرنّ.. قلبي، وجودي على الأرض فلا يقفنّ شيء لمعارضتي في المحاكمة، ولا تكونَنّ معارضة ضدي في حضرة ذوي السلطان الأبديين، ولا يُدبَّرنّ لي شرٌّ في حضرة الآلهة،ولا يكونَنّ تخلٍّ منك عني في حضرة الإله الأعظم ..

لكِ التكريم يا مقر شعوري.. لكِ التكريم أيتها القاطنة في السحب الإلهية.. المقدسة بفضل صولجانك.. قولي كلمات منصفة فيّ لآلهة الرعب في ساحتك.. فلتخرجي إلى اللا موضع حيث لا تُدرَكين.. ليكن غضبك مرضيًا لنا، وليكن حنقك مرضيًا لنا.. يا من خلقتِ الخوف من عينك، والرعب من قلبك.. فتعلقت بكِ العيون، والقلوب ..

مشدود أنا نحو تراب قدميكِ على درب تجاوز الخوف، والرهبة، والوجل.. يا صاحبة الخطى الواسعة.. يا من يعانقها اللهب.. يا أيها الأنف الإلهي المُتعال.. يا آكلة الظلال.. يا ذات العينين الصوانيتين.. يا ساحقة العظام.. يا مُضرمة اللهب..

تقولين مخالفتي في جسدي.. أنا الذي شكّل كيانه في عينه، ولن يموت من جديد.. رهبتي في جسدي.. أما صوري ففي مسكني.. أنا الذي لا يمكن أن يُعرف.. أنا السافر.. اسمي يقصي نفسه من كل الأشياء.. أنا العتبة التي لا يتجاوزها فانٍ.. فارجع، عُدْ.. لن تتقدم نحوي فإني أحيا بفضل الكلمات السحرية التي بجانبي.. لي كما للأرض سلطان على فصولها، وللكلمة سلطان على ما تمتلك ..

أجول في السماء.. في الأركان الأربعة، أمد يدي وأقبض على نسائم الجنوب، أشرق في الأفق، ومحفل الآلهة يتبعني.. رهيبة حين آتي متجددة كل يوم.. انظري الآن أيتها النفوس الضالة لقد ولدت الإلهة

الكبرى واكتملت حبائلها.. تشبثوا بقوة بالأداة التي تشق بها دربكم فقد أطلقت سراح زورق الشمس ليخرج إلى السماء.. يطوف مُبحرًا.. يسافر ليسافر، ويرتحل ليفعل.

كوني معبودة أيتها النفس..يا أيتها الموهوبة.. أنعمي علينا بالمزيد.. يا من أنتِ ربّة القدرات.. فليتملكنا الخشوع، والابتهال في حضرة مرآة الليل، والانعكاس السفلي لكل ما تقرره قوى الظلام..

***

شقة غريبة.. تدخل هي مجالي، وكأنه لها، وكأنني لها.. توحي إليّ بلا رسول، بلا وسيط، تَخَاطُرٌ مخيف.. جلست أمامي، وكأني أمام منظار معظم.. لا أدري هل أرتني ما بداخلها.. أم أرتني ما بخارج عن كلينا..

تُقبل ريا على غرفة الإعدام.. فتحوا عليها زنزانتها فوجدوها جاهزة.. ارتدت الجلباب الأحمر، شعيراتها البيضاء التي اعتاد سجانوها أن يلمحوها نافرة عن جانبي "المدورة" كانت قد استكانت وتمددت على جانبي الرأس الصلب ..

***

– ستي.. بنتي، وبنت سيدي.. ستي، وتاج راسي.

– مين يا ريا؟!.

تتلفت حولها في خوف، وتعود لتُتمتم من جديد..

– ستي.. بنتي، وبنت سيدي.. ستي، وتاج راسي..

ثم تخاطب حضورًا علويًا غير مرئي ..

– أني راضية يا ستي.. أني طوعك يا ستي ..

– ....

القامة مرفوعة والرقبة تتعامد على الكتفين العريضين.. لم تزل تلك النظرة السمكية الباردة تطل من محجرين ناريين، العينان كأنهما جوف كهف بلا نهاية، مستعرضتان، تضيقان عند النهايات.. بلا لمعان لا عن غباء وإنما عن جفاف بالضرورة.. فهما لا ترمشان.. كأن في الرمش ضعفًا لا ينبغي لصاحبتهن.. شفتاها الغليظتان توردتا على غير عادة من هن في موقفها.. كانت قبل التنفيذ ترتدي الجلباب الأحمر فوق ملابسها.. اليوم خلعتهن، وارتدت الجلباب على اللحم، وحين سألتها فوزية السجّانة.. أجابتها..

– يعني نموتوا في خلجات حرام.. طب ده ما يصحش، وحياة سيدي عماد"

***

مجذوبًا أطوف أسباعًا حول ضريحه.. لا لأعلم، لا لأعرف، لا لأوقن، وإنما لأرضي.. سيدي عماد الدين بن محمد بن إسحاق بن محمد بن المرتضي البلبيسي الشهير بالقاضي البلبيسي من حُفَّاظ مذهب الإمام الشافعي.. أخذ الفقه عن بن الرفعة وأعلام عصره في الشريعة، وُلِّي القضاء بالإسكندرية زمنًا طويلًا، وكان في فترة سطوع نجم سيدي داود بن باخلا، وسيدي أحمد بن المبلق.. التقى به بن الصباغ صاحب كتاب دُرة الأسرار، ونقل عنه رواية عن سيدي أبو الحسن الشاذلي قال القاضي عماد:

(كان عندنا بالإسكندرية امرأة مُسرفة على نفسها فلما ماتت رُؤِيَتْ في حالة حسنة فلما سُئلت عن سبب ذلك قالت لقد صادف موتي نفس اليوم الذي توفي فيه الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ولقد غفر الله لكل المسلمين الذين ماتوا في ذلك اليوم ببركة الشاذلي)

وكما دخلت.. خرجت، لا حصان تحتك يقودك في بلادها.. أو تقوده في بلاد تقع بينكما صوب المصير المقروء في رحلتك الأولى، والمكتوب في الثانية.. ثنائية من جديد.. اليانج والين ثنائية غير حتمية معها كل ما هو ساكن هادئ بارد قاتم هو ين، وكل ما هو حركي انفعالي حارٌّ مليء بالنور هو يانج .. كلما ازداد أحدهما قلّ الآخر لحد ما .. ثم يظهر من جديد.. في داخل كل واحد منهما إمكانية التحول للآخر.. كما توضحه الدائرة الصغيرة في كل منهما.. المباراة بينهما صفرية عندها..حسمها الظلام قبل ميلادها في ظُلماتٍ ثلاث .. ظلمة الرحم وظلمة عمى البصر وظلمة عمى القلب.. عيبٌ خِلقي ولدت به.

تحار فيها بين سكينة وريا.. بين الصفر والواحد، بين الاستتار والكشف يتزغ كل شيء فيها، وهنا يظهر للعيان محمد عبد العال

زوج سكينه.. أقصد الرقم (2) من فكرة وجود احتمالين..إما الصفر وإما الواحد.. إما المُستتر وإما المعبر.. اليانج انتقال من الصفر للواحد.. والين انتقال من الواحد للصفر ..

15

هي ذلك الكيان الخارق الذي يتجاوز كلَّ الكائنات.. إلهة تفترض إيمانًا أو تجربةً صوفية.. لا تقبل الإيمان الموروث أو المُتبنَّى.. حين أقولها.. أكونها.. أعني بها ذلك الجوهر اللامتناهي.. الخالد، وغير المتحول، والمستقل، والعارف لكل شيء .. الكلِّي القدرة ..

رغبتها أوامر، أوامرها كلام، كلامها حلول، حلولها حركة نحو الحال، والحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم حتى تفعل..

هي..الجوهر الثابتُ القائم بذاته في مقابلنا نحن الأعراض المتغيرة..

هي الجوهر المُستغني عن الموضوع في مقابل الأعراض المُحتاجةِ إلى موضوع وإلى مَحَلٍّ تحلُّ فيه ..

هي.. إذا وُجدت في الأعيان لم تكن في موضوع.. إرهاصات وجودها قبل القبل، وبعد البعد.. اختلافية الكيان والكينونة.. مبلغ العلم فيها أنها أحوال صفات لا موجودة ولا معدومة، ولا معلومة ولا مجهولة، هي على حيالها،وعلى حالها كواسطة بين الموجود والمعدوم.. قائمة بموجود.. موجودة بذاتها،موجودون نحن بها.. صفات تقوم على ذات الموصوف.. لا نملك معرفتها مطلقًا، ولا معرفتها على صفة.. فقط معرفة غير مباشرة للحال فالمفهوم منها غير المفهوم من الذات العَصِيَّة ..

***

نمرة المسجون بالدفتر العمومي: 5639.. الاسم: محمد عبد العال.. العمر: 24 سنة.. وزنه عند دخول السجن: 67 كجم، وزنه آخر مرة قبل التنفيذ عليه: 74 كجم، تاريخ دخوله السجن: 1920/12/20، تاريخ الحُكم: 16 مايو 1921،تاريخ التنفيذ عليه: 1921/12/22، حالته الصحية عند دخول السجن: جيدة، حالته الصحية قبل التنفيذ عليه مباشرة: جريء جدًّا، ورابط الجأش، وبحالته الطبيعية.. آخر عبارة فاهَ بها قبل التنفيذ عليه:

- كتِّف شِدّ حِيلك..

مُدة الزمن التي شعر بدق النبض فيها عقب الشنق:

خمس دقائق ..

***

وبين الصفر والواحد والاثنين تدور النهايات.. الإعدام يوم 21 واحد واثنان.. شهر ديسمبر..اثنان وواحد..عام 21..واحد واثنان..

أول ضحية.. خضرة محمد اللامي والتي أحضرت لريا كأسًا من الكونياك، ورفعت يديها أمامها، وكان صدرها يعجُّ بمصوغاتها الذهبية، وأخرجت من صدرها كيسًا به العديد من الجنيهات بعدما انصرفت قصَّت القصة على حسب الله زوجها، وهنا عرض عليها سرقتها بينما عرض عبد الرازق قتلها، وكان حسب الله يخشى طرده من الإسكندرية كما طُرد من كفر الزيات سابقًا، وكان خوف ريا من لسان سكينة بسبب أنها تحتسي الخمور ويغيب عقلها باستمرار ..

وفجأة تدخل بديعة ..

يصمُت الجميع، أفواه مفغورة،وحين يخرج ظلها من الغرفة يكونوا قد استقروا على قتل خضرة.. الضحية الأولى، وتم دفنها في بيتهم في

حارة "علي بك الكبير"21 ديسمبر 1919 نفس تاريخ إعدامهم عام 21 ديسمبر عام 1921م ..

الثلاثة.. حسب الله سعيد مرعي..27 سنة.. زوج ريا، المهنة.. فاعل.. عبارة عن (0)، مبدأ مستتر، و(1) مبدأ معبِّر، وعملية انتقال بينهما ..

***

نمرة المسجون بالدفتر العمومي: 5638 .. الاسم: حسب الله سعيد مرعى.. العمر: 27 سنة.. وزنه عند دخوله السجن: 70 كجم .. وزنه آخر مرة قبل التنفيذ عليه: 72 كجم .. تاريخ دخوله السجن: 1920/12/20، تاريخ الحكم: 16 مايو 1921.. تاريخ تنفيذ عليه:1921/12/21،حالته الصحية عند دخوله السجن:

سجحات مسطحة بالظهر،حالته الصحية قبل التنفيذ عليه مباشرة: جريء جدًّا ورابط الجأش.. آخر عبارة فاهَ بها قبل التنفيذ عليه :

أقرَّ بأنه صحيح قتل خمس عشرة " 15"،وليس سبع عشرة "17"، مدة الزمن التي شعر بدق النبض فيها عقب الشنق:

ثلاث دقائق ..

***

عرابي حسان .. 26 سنة .. معلم في البحر .. كان هو الأربعة 4 .. مبدأ مستتر، مبدأ معبِّر، ومبدأ متوسِّع من المستتر للمعبِّر، ومبدأ منكمش من المعبِّر للمستتر..

فصول أربعة.. الصيف هو المبدأ المعبِّر، الشتاء المستتر، الخريف المنكمش، والربيع المتوسِّع.. عناصر أربعة.. النار هي المبدأ المعبِّر، الماء هو المبدأ المستتر، الهواء هو المبدأ المتوسع، والتراب هو المبدأ المنكمش لذلك كان رقم الأربعة هو الرقم الأرضي، والوجود الأرضي، ورقم البناء الأساس، ورقم المربع والمستطيل وشبه المنحرف وغيره ..

رقم الخمسة هو لضرورة وجود توازن بين الأربعة ..

***

عبد الرازق يوسف.. 30 سنة.. عربجي.. الخامس بعد الصفر، والسادس بعد الواحد.. تمرد ازدواج الهوية يظهر صبيحة الإعدام.. نقلوه جرًّا إلى الغرفة السوداء، لم يكد يدخلها ويرى المشنقة حتى تملكته صحوة الثورة.. عبثًا حاول حراس السجن أن يسيطروا عليه، أو أن يعيدوه إليها.. قوته البدنية البينية وسط خمسة وستة خارقة للاثنين معًا..تمكن من التغلب عليهم، من محاولة الفتك بكل مَنْ يقترب منه.. خدمته في الحرب العالمية قبل سنوات خلف خطوط الحلفاء أكسبته مهارة قتال عجيبة.

***

يتلفّتُ ثم يُتمتم ..

- ستي، وست الناس، وست الخلق ..

- مين يا ابني؟ .. بتكلم مين؟

- أني كنت بنعملوا إللي تقولي عليه، أني كنت بنعملوا إللي تقولي عليه، أني كنت بنعملوا إللي تقولي عليه ..

- ....

كان في سجن الحضرة حينذاك أحد فتوات الإسكندرية المشهود لهم بالقوة والشجاعة واسمه النُّجْر.. جذع شجرة قصير لا يسكنه خوف أعالي الفروع العنينة.. يسير على ساق بلا قدم.. فقط جذور يمدها في كل خطوة يمشيها، مكتنز قوة.. استنجد به رجال حرس السجن فانطلق نحو عبد الرزاق.. حين لا تكون مصنفًا في الأرقام لا

يكون لديك ما تخسره من خانات.. هنا قابلات النصر تستولد لك اللحظة.. صارعه.. حتى تغلب عليه ثم حمله إلى الغرفة السوداء، وشد وثاقه.. ثم ساعد عشماوي في تجهيزه على منصة المشنقة إلى أن نفّذ فيه الحكم ..

***

حسن علي محمد الصائغ.. الستة هو دخول الاثنين من خلال الأربعة .. عرابي ..

وبما أن الرقم أربعة هو رقم العالم المادي، والثلاثة هو رقم التكوين والإنشاء والخلق من خالق ومخلوق وعملية الخلق..فالسبعة يربط العالم المادي بالروحي، ويخرج براءة من كل الخانات ومن شبهة القولبة.. سلامة محمد الكيت .. 30 سنة .. سمّاك ..

بعده يدخل الواقع المادي للأربعة بواقع جديد من خلال الثمانية.. مريم الشامية صديقة سكينة، وقهوتها البلدية التي كانت تشهد التخطيط والاستدراج.. ثم يعود الرقم 1 ليؤثر من جديد من خلال الرقم 9 فهو الرقم الأخير..محمد خفاجي صديق ريا ومخزنه العامر..

***

قبل العودة من جديد للوحدة من خلال الرقم 10 وجود الصفر معه يضخّم ويقوّي من طاقاته. محمد علي القادوسي الشهير بالنُص.. 52 سنة .. بيّاع.

ثم يقف بك عندها المقام فلا تدري أين تقع هي من جوهر الأرقام.. أعن يمين؟ أم عن يسار؟

***

تجدها هي.. يد الماريونت التي تحرك العرائس العشر.. أحبال الخوف، أوردة الأخادع، مرتعدات الرهب والذعر والخوف والوجل.. لا نهائيات تنتهي عندهم، وتبدأ بها وحدها.. فلا تدري لها كيانًا رقميًا قبل الوجود..قبل الصفر.. هي .. كيان مفارق بالأسبقية، وبالإرادة، وبعد النهاية .. تظل هي .. الكيان المفارق .. بالخلود.

16

المصادفة.. وقوع مدهش ولافت لحادثتين أو أكثر في نفس الوقت.. التقاء بين سلاسل علِّية مستقلة.. هي الاثنان في آن.. حين تخضع لقوانين الخلق تكون ضرورة، وحين لا تخضع تصبح مصادفة.. الخوف يخلق معرفة وهمية بهول ما ترهب فيجعلها ضرورة.. الجهل وحده هو من يعيدها لحجمها.. مصادفة لعدم كفاية المعرفة.. فلا تصبح واقعًا خارجًا عنك.. بل تخلقها أنت داخلك فلا تكون إلا بك وفيك..

المصادفة.. هي الفكرة المُضادة للضرورة رغم أن ذلك لا يترتب عليه أنها نفي للضرورة أو إنكار لها.. فالارتباط بين السبب والمُسبِّب إنما هو ضَرْب من علاقة منطقية بين مقدم وتال، ولكن السبب لا يؤدي إلى نتيجة، وإنما هناك كثرة من الأسباب المتمايزة تساهم في

حدوث النتيجة من غير أن يكون لدينا وسيلة لتمييز دور كل واحد منها.. وحده الرعب هو مَنْ يجعل المصادفة اللامحدودة ظواهر موجهة تخضع لإرادته غير الواعية.. ليس لها وجود خارجي موضوعي بل وجود ذاتي يتعلق بِكَمٍّ المعارف الموجود لدينا ..

فردوس الحبشية ترسل ملابسها للكي في حانوت على مقربة من الوكر، ولما أبطأ الكواء في تجهيز الملابس ذهبت إليه تستعجله فوجدهما هناك، ودعتها ريا إلى منزلها ريثما يتم الرجل كي الملابس، ولبَّت فردوس الدعوة، ولبّت نداء الموت، ولما بحثت خديجة، وهي صاحبة البلاغ سودانية الجنسية،وحرم أحمد علي الموظف بمخازن طنطا، ووالدة فردوس عنها؛ أرشدها صبي الكواء إلى المنزل الذي دخلته مع ريا.. فأبلغت بوليس قسم اللّبان؛ قالت إن ابنتها اختفت فجأة وكانت تتزين بمصاغ ثمنه ستون جنيهًا، وزوج من الأساور ثمنه 35 جنيهًا وحلَق قشرة، وقلب ذهب معلّق بسلسلة ذهب، وخاتمين حرزبي بثلاثة جنيهات.

في هذه المرة استدعى اليوزباشي إبراهيم كل من له علاقة بقصة اختفاء فردوس، ونجح في تتبع رحلة خروجها من منزلها حتى لحظة اختفائها، وقفز اسم سكينة من جديد لتكون آخر من شوهدت مع فردوس.

لا أدري أين قرأت التفاصيل؟ ربما في مجلة الهوانم أو مجلة المرأة المصرية أو تلك المجلة الجديدة لمصر الفتاة.. تلك المجلات التي كانت تأتي نسخ منها لمديرة الدار التي لا تقرأ فتصل إلى مكتبي مقابل بعض البسكويت المستورد.. فساد نبيل..

قصص الرعب تكاد تدور حول البيوت.. جميعها تفعل،لا يهم رقم البيت أو هيئته قبل الفعل، بعد الفعل كل حجر فيه يهم، رقم 5 شارع ماكوريس في حي كرموز، رقم 38 شارع علي بك الكبير. رقم 6 حارة النجاة، رقم 8 حارة النجاة..

***

ليس للمكان قوة دون الزمان..

الجمعة 17 أكتوبر من العام 1919..

الزمكان يشير إلى انتفاضات شعبية ضد القوات البريطانية المحتلة، انشغال البوليس بل عساكر الدرك في فضها أتاح الفرصة للظلام أن يتغاغل في اثنين من الأبعاد.. بُعْد الزمان، وبُعْد المكان، وحين تُؤمَن العقوبة.. يسوء التصرُّف ..

تتشابه البيوت قبل الفعل.. بعده لا تفعل،الأرواح التي أُزهقت في الزمكان تضفي طابعًا مختلفًا.. ليس أكثر.. مدخلٌ ضيقٌ كلحدٍ مرتفع، وبدلًا من النزول تجد سبع درجات حجرية تتوهم صعودها.. السلم الحقيقي للصعود بعد بسطة صغيرة لا تلبث أن تُحرم منه حين تنحرف يسارًا نحو القبو.. الانحراف بداية الانحدار، قبله تجد نافذة غير

نافذة، خادعة بارزة، مرسومة موسومة عن يسار الداخل المفقود، ويمين الخارج المولود.

شهران وتبدأ البلاغات تترى.. يناير من العام 1920، زينب حسن.. البالغة من العمر أربعين عامًا تشكو إلى حكمدار بوليس الإسكندرية في منتصف الشهر.. تشير في شكواها إلى اختفاء ابنتها نظلة أبو الليل البالغة من العمر 25 عامًا.. دون سرقة أي شيء من شقة ابنتها ..

حسنية.. تختفي تلك الفتاة اليتيمة من فتيات الدار، دخلت قبل أعوام حين مات أبوها وأمها وهما يحفران بحثًا عن الآثار في كوم الشقافة.. فجأة، وقبل أيام الاختفاء القسري أو الإخفاء ينادونها نظلة..

***

منتصف شهر مارس من العام نفسه.. بلاغ ثانٍ تلقاه رئيس نيابة الإسكندرية من محمود مرسي يفيد باختفاء أخته زنوبة بنت محمد مرسي حرم حسن محمد زيدان،وعلى الرغم من ذكر صاحب البلاغ اسم ريا وسكينة في كونهما آخر اثنتين كانتا بصحبة أخته فإن الجهات الأمنية استبعدتهما من الشُّبهات ودائرة التحقيقات ..

***

عبّاسة .. ينادونها زنوبة قبل أيام .. ثم تختفي من الدار ..

***

البلاغ الثالث كان عن طريق أم إبراهيم.. فتاة تبلغ من العمر 15 عامًا.. أكدت في بلاغها للجهات الأمنية بالإسكندرية اختفاء أمها زنوبة بنت علي أحمد.. الشهيرة بزنوبة عليوة.. بائعة طيور تبلغ 36 عامًا، وتشير الفتاة في بلاغها أن آخر مَنْ تقابل مع والدتها هما ريا وسكينة ..

***

رقية .. في الدار .. ينادونها زنوبة عليوة ..

تختفي ..

***

بلاغ من حسن الشناوي، ويعمل جنايني بجوار نقطة بوليس المفروزة بالقباري يؤكد أن زوجته نبوية علي اختفت منذ عشرين يومًا..

كانت الأدلة تتوالى وإن كان أقواها جلباب نبوية الذي تم العثور عليه في بيت "سكينة"، وأكدت بعض النسوة من صديقات "نبوية" أن الجلباب يخصُّها، واعترفت "سكينة" بأنه جلباب "نبوية"، ولكنها قالت إن العُرف السائد بين النساء في الحي هو أن يتبادلن الجلاليب، وأنها أعطت نبوية جلبابًا وأخذت منها هذا الجلباب الذي عثرت عليه

المباحث في بيت "سكينة"، وبالفعل نجحت "سكينة" كثيرًا في مُراوغة المباحث، لكن "ريا" هي التي انهارت سريعًا، وآثرت الاعتراف مبكرًا. حيث قالت "ريا" في بداية اعترافها:

إنها امرأة ساذجة، وإن الرجال كانوا يأتون إلى حجرتها بالنساء أثناء غيابها ثم يقتلون النساء قبل حضورها، وإنها لم تحضر سوى عملية قتل واحدة ..

***

نجية .. نبوية .. تختفي ..

***

بلاغ آخر تلقاه المحافظ من نجار اسمه محمد أحمد رمضان عن اختفاء زوجته فاطمة عبد ربه عمرها 50 عامًا وتعمل شيخة مخدّمين، وقال الزوج إن زوجته خرجت ومعها 54 جنيهًا وتتزين بـ18 غويشة، وزوج مباريم وحلَق من الذهب الخالص، وأدلى بأوصاف زوجته.. قمحية اللون، طويلة القامة، وسبق أن فقدت عينها اليمنى.. لذا فهم ينادونها بفاطمة العورا، وهي ترتدي ملاءة كوريشة سوداء، وجلبابًا كحليًّا، وتلبس في قدميها صندلًا ..

***

فاطمة.. فاطمة أيضًا الوحيدة التي لم تغير هي اسمها،ولم تغير قَدَرها تختفي أيضًا ..

***

تبع هذا البلاغ بلاغ آخر باختفاء فتاة عمرها 13 عامًا اسمها قنوع عبد الموجود ..

وبلاغ من تاجر سوري اسمه الخواجة وديع جرجس عن اختفاء فتاة عمرها 12 عامًا اسمها لولو مرصعي تعمل خادمة له،وقد خرجت لشراء أشياء من السوق ولم تعد منذ الجمعة 17 سبتمبر 1920 ..

لولية .. لولو ....

***

وبلاغ آخر عن اختفاء سليمة إبراهيم الفقي بائعة الجاز.. تعيش بمفردها في حارة اللّبان ..

***

سلمى .. سليمة ....

***

ثم أخيرًا، وفي صباح يوم 11 ديسمبر تلقّى اليوزباشي إبراهيم حمدي إشارة تليفونية من عسكري الدورية بشارع أبو الدرداء

بالعثور على جثة امرأة بالطريق العام،وتؤكد الإشارة وجود بقايا شعر رأس طويل، وانفصال أعضاء الجسم بعضها عن بعض. وبجوار الجثة طرحة من الشاش الأسود وجورب أسود مقلّم بأبيض. وانتقل اليوزباشي إلى مكان وجود الجثة، وهناك أكد زبّال المنطقة أنه عثر على الجثة تحت طست غسيل قديم ..

***

مجهولة لم نكد نسجلها بين فتيات الدار.. تختفي.. فقط تختفي.. مجهولة، وتختفي ..

***

يعني التزامن حصول حالة نفسية معينة في آنٍ واحد مع حَدَثٍ أو عدة حوادث خارجية تبدو كمتوازياتٍ ذات مغزى للحالة الذاتية اللحظية ..

والعكس بالعكس في بعض الحالات ..

خبرات التزامن تتمحور دائمًا حول معنى حاسم، وثيق الارتباط بتفرد الشخص المعنيِّ في تلك اللحظة، وغالبًا ما تسبقها فترةُ انفعال شديد تبلغ ذروتَها في انكشافٍ للمعنى مذهلٍ فيما يخصُّ تفرُّد ذلك الشخص ..

التزامن جمع لبؤرتين في سيرورة التفرد ومن دون رَبْط هذه الأحداث؛ تبقى مقتصرةً على كونها تجارب شاذة عن العادة.. ليس إلا .. في حين أنها تكشُّفات للذّات في كلا العالمين الداخلي والخارجي.. تكشفات من شأنها إذا استوعبناها.. أن تحوِّلنا إلى الأبد.

17

الرقم 17 في الأرقام الرومانية يُكتبXVII ، وإذا غيرت ترتيب الحروف تصبح VIXI التي تعني "حياتي انتهت" في اللغة اللاتينية، وفي حال تصادف أن يكون يوم 17 في أي شهر ميلادي هو يوم جمعة فإنهم يسمونه شهر الموتى ..

هي.. ليست مرئية إلا لمن يُفتّح لديه البصر الداخلي.. أو العين الثالثة ليستشف مجالها وألوانها، ذبذباتها الطيفية عند الحضور.. ذراتها المتساكنة عند الحلول، تدركها عبر طبقات الوعي العليا أو مستويات الوجود الحياتي قبل أن تأمر هي فتزهقه .. أو تأمر هي فتثبته ..

جسم باطني، جوهر مخفي، منشور بلوري يحوي جميع الألوان.. تتميّز بلون واحد طاغ على الجميع ..

لا .. ليس الأسود.

الأزرق الأنثوي يقودنا إلى أنماط بدئية أساسية تتجاوز الزمان والمكان.. نحن.. موضوعاتها.. من يعطيها تطبيقات محدودة زمنيًا ومكانيًا وتحليلها عقليًا لتختلط علينا الصورة الكلّية الهولوغرافيّة لها..

***

ثم تقدَّم أحمد مرسي عبده ببلاغ إلى الكونستابل الإنجليزي جون فيليبس النوبتجي بقسم اللّبان.. يقول فيه إنه أثناء قيامه بالحفر داخل حجرته لإدخال المياه، والقيام ببعض أعمال السباكة فوجيء بالعثور على عظام آدمية لجثة كاملة دفعته للإبلاغ،وتحمَّس ملازم شابٌّ بقسم اللبان أمام البلاغ المثير فأسرع بنفسه إلى بيت الرجل الذي لم يكن يبعد عن القسم أكثر من 50 مترًا، ورأى الملازم الجثة بعينيه فتحمَّس أكثر للتحقيق والبحث في هذه القضية.. ثم اكتشف أنه أمام مفاجأة لم تكن في الحُسبان ..

إذ أكدت تحرياته أن البيت الذي عثر فيها الرجلُ على الجثة كان يستأجره رجل اسمه محمد أحمد السمني الذي كان يؤجِّر حجرات البيت من الباطن لحسابه الخاص، ومن بين الذين استأجروا في الفترة الماضية بهذه الطريقة: سكينة بنت علي همام، وصالح سليمان، ومحمد شكيرة ..

وعرف الملازم أن سكينة، وابنة أختها سبق لها أن استأجرت هذه الحجرة من السمني، وتركتها مرغمة بعد طرد المستأجِّر للسمني بحكم قضائي من هذا المكان، وقد حاولت سكينة العودة إلى هذا المكان بأي وسيلة، ولكن صاحب المترل رفض رفضًا قاطعًا..حيث ضاق السكان بسلوكها، وممارسات النساء الخليعات اللاتي كن يترددن عليها مع بعض الرجال ..

وبعد أن ظهرت الجثة بحث المخبرون في المنطقة عن أية دلائل تقود إلى المتهمين، ولاحظ أحد المخبرين ويُدعى أحمد البرقي انبعاث رائحة بخور مكثفة من غرفة ريا بالدور الأرضي بشارع علي بك الكبير مما أثار شكوكه، وأشار في بلاغه أنه عندما سأل ريا عن هذه الرائحة أكدت أنها تقوم بذلك من أجل إضاعة رائحة الرجال المخمورين الذين يدخلون المكان بصحبة أختها ..

لم يقتنع اليوزباشي إبراهيم حمدي بذاك الكلام، وأمر بإخلاء الحجرة ونزع الصندرة ليكتشف أن بلاط الحجرة حديث العهد، وتصاعدت رائحة العفونة، وحينها ظهرت جثة امرأة لتصاب ريا بالارتباك، وسكينة بالهذيان، وتتمتم سكينة في وجل ..

- ستي، وبنت أختي ..

- ....

- أني راضية وقانعة .. أني راضية وقانعة .. أني راضية وقانعة ..

- ....

ويُقرِّر اصطحاب ريا إلى قسم اللبان لتخبره اللجنة الموجودة بمكان الجريمة بالعثور على الجثة الثانية،وعليها ختم حسب الله المربوط في عنقه الذي يبدو أنه وقع منه أثناء دفن الجثث.. نظرًا لأن تخصصه داخل العصابة هو دفن الجثث. اعترفت ريا في القسم بالجرائم بعد اكتشاف الجثة الثالثة ..

تأمر قوات الأمن،وحكمدار الإسكندرية بالتفتيش تحت بلاط كل الأماكن التي كانت فيها السفاحتان ليتم العثور على العديد من الجثث أسفل البلاط، ويعثر الملازم أحمد عبد الله من قوة المباحث على مصوغات وصور وكمبيالة بمئة وعشرين جنيهًا في بيت عرابي.. كما عثر نفس الضابط على أوراق وأحراز أخرى في بيت باقي المتهمين..

-خضرة..نظلة.. عزيزة.. نبوية.. زنوبة.. سليمة.. نبوية.. فاطمة.. زنوبة.. فاطمة.. أنيسة.. أمينة.. خديجة.. هانم.. فاطمة..حجازية .. فردوس.

***

ريا بنت علي محمد همام.. نمرة المسجونة بالدفتر العمومي 5560.. العمر 35 سنة.. الوزن عند الدخول 42 كجم.. الوزن آخر مرة قبل التنفيذ عليها 50 كجم ونصف.. تاريخ دخولها السجن:

16 ديسمبر 1920، تاريخ الحكم:16 مايو 1921 .. تاريخ التنفيذ عليها: 1921/12/21.. حالتها الصحية عند دخول السجن: جيدة، حالتها الصحية قبل التنفيذ عليها مباشرة: باهتة لون الوجه، وحائرة،آخر عبارة فاهت بها قبل التنفيذ عليها:

- أودعتك يا بديعة بنتي عند الله..

مدة الزمن التي شعرت بدق النبض فيها عقب الشنق: دقيقتان ..

***

وبعد أن كبس البوليس على المترل، وبسؤال ريا كانت أول كلمة قالتها بعد أن أرشدت عن الجثث:

- ....

- عرابي حسان هو القاتل ..

وتم العثور على ثلاث جثث.. ثم وهي تنظر إلى أعلى كأنها تتلقى هاتفًا خفيًّا:

- ....

- أحمد الجدر كمان قاتل ..

- ....

- وعديلة كانت بتجيب النساوين للبيت ..

– بس ده التحريات أثبتت غير كده ..

– تحريات إيه.. أني بنقولوا إللي بيتقاللي ..

– يعني إيه؟

– ....

– عديلة ما جاتش عندك إلا مرة واحدة ..

– ....

***

هنا تأتي هي ..

الحضور، التجلّي، بلا تخلٍ.. فقط هي..

تظهر للعيان كأكبر شاهدة إثبات في القضية، وفي 16 مايو 1921 الموافق 8 رمضان سنة 1339 أصدر الرئيس أحمد بك الصلح موسى حكم الإعدام بحقِّ ريا وسكينة وزوجيهما واثنين من "البلطجية" الذين شاركوا في عمليات القتل الفعلي لـــ 17 امرأة، وفتاة ..

بينما حُكم على حسن علي محمد الصائغ بخمس سنوات في السجن لقيامه بشراء مجوهرات الضحايا.

***

ومن بين ما يقرب من 34 شاهد إثبات منهم السيدة بنت سليمان، زينب أم حسن الشهيرة بأم نظله (الضحية 2)، فاطمة بنت علي المتولي الشهيرة بتوتة،محمد إبراهيم الغاوي الشهير بالعجوز الذي اكتشف الجريمة وأبلغ السلطات، من بين كل هؤلاء انفردت النيابة بأكبر شاهدة إثبات في القضية وهي.. "بديعة" ابنة "ريا"

تَحْلُل.. تَحْضُر.. تتجلّى.. تطلب الأمان قبل الاعتراف ..

الأمان.. ذلك الذي وأدته هي حيًّا ودفنته قبلهن جميعًا ..

***

سليمان عزت المحقق يعطيها الأمان ..

- شفتي إيه يا بديعة؟

- أني كنت أدخل الأودة أجرّ رجلي يا باشا زي الجربانة، وأعملها على روحي، وأشوف ريحة وحشة في الأودة ..

- يا بديعة الريحة بتتشم مش بتتشاف ..

- ....

- خلاص.. كملي يا شاطرة ..

- أمي ما كانتش موجودة في خنق الستات..خالتي سكينة هي.

- ....

كان من ذكاء سليمان عزت عندما اصطحب سكينة لمعاينة جثة أم عرفات (الضحية رقم 10) في مكان الجريمة ..

أمسك يديها،وجس النبض، وكانت ضربات نبضها سريعة جدًا.. مما أكد له أنها صاحبة الجريمة ..

هي.. تطلب الأمان كي لا تنتقم منها خالتها "سكينة"،وزوجها، وبالفعل طمأنتها الشرطة فاعترفت بوقائع استدراج النساء إلى بيت خالتها وقيام الرجال بذبحهن، ودفنهن ..

ورغم الاعترافات الكاملة لبديعة إلا أنها حاولت أن تُخفِّفَ من دور أمها "ريا" ولو على حساب خالتها "سكينة" ..

***

عزيزة جارة سكينة في بيت شارع ماكوريس.. قالت:

- ....

- كنت عند ريا بنتسايروا ع المسا كده، جه حسب الله وشيّلني معاه شوال مربوط كات ريحته منتنة، ولا مؤاخذة، ورحنا بيه عند مفارق شارع عبد المنعم بشارع أبو الدردار ..

- ....

***

18

معظم الحضارات لم يكن لها في البداية غير إلهين أحدهما ذكري، والثاني أنثوي.. الأول أحمر، والثاني أزرق.. لون السماء فقط ظاهرة انكسارية للضوء.. حيث خلال مرور الضوء بطبقات الجوّ المختلفة، تقوم الذرات والجزيئات الموجودة بعكس الأمواج الأكثر قصرًا، والتي يغلب عليها اللون الأزرق الذي يبدو أكثر نقاء بسبب الخلفية السوداء لقبّة السماء فلا تدري معها أهي الأزرق أم الخلفية السوداء حين تأتي لا تكون إلغاءً للألوان باللون الأسود..تكونِ طغيانًا مستبدًا، غياب كل لون في حضورها، الظل، العتمة والليل، الفناء والموت وانعدام الحياة، أعماق الأرض،وأعماق الماء،الشتاء والماء والفوضى.. هي من الظل ذلك الجزء منّا المنذور إلى الجحيم، توأمنا المعتِم، وقريننا الغائم ..

يدفع الزمن العالم باتجاهها نحو الأسود، قانون استهلاك الطاقة إليها الدرب والدليل هي العين الأم في النهاية، إبداع تكويني قادر على تحسس الألوان عبر الزمان والمكان لا تتلقى ألوانًا بعينك إلا ما تمررها لك، في داخلها حلقة ضوئية كاملة، تبدأ من الغمامة إلى الوضوح.. من الأسود..الأزرق، الأخضر، الأحمر لتسقط من جديد في الأسود ..

***

هي ..

أول ديانة للزجل كانت هي، حقيقة ما تزال جدران الكهوف، والرُّقُم الحجرية تؤرِّخ لها، وما تزال رسوم سيدة براسمبوي العائدة إلى سنة 36000 قبل الميلاد حاضرة، كذلك رسوم فينوس دي سيروي الموجودة منذ 25000 سنة قبل الميلاد.. حينها كان المجتمع المتريركي الأمومي يسود الأرض لعله اليوم سيعود بها ولها وفيها ومنها وإليها ..

الربة إنانا في الأسطورة السومرية الأولى ربة البشر،آخر من بقيت من ربات الفنون السبع المقيمات على قمة جبل الأوليمب في الأسطورة الإغريقية ربة العماء الأول في الأسطورة البابلية ..

ليليت المقدسة ربة المهد،فرادة الأنثى.. سمراء طويلة بشعر كالليل تهدهد عليه الصغار ليلًا، ورموش طويلة تضيء لهم الأحلام.. حتى تأكلهم قبيل الفجر ..

تعامة الأم الأولى تغدو رمزًا للشرور، ليليت تتربص بالأطفال، وتغوي الرجال لقتلهم، يغدو شعرها أرجوحة النوم المهدهدة أنشوطة للخنق ..

البومُ عندها تتحول من حيوان حكيم عميق إلى ناعب للخراب.. أما الحية التي كانت رمزًا للمرأة الشافية فتحولت إلى أكثر الحيوانات شرًّا، وفتكًا حتى أنها تلبست لباس إبليس لتغوي المرأة بالمعرفة.. المعرفة صارت إثمًا في الديانات البطريركية،والمرأة التي تستخدمها تحرم نفسها ورجلها من النعيم ..

بديعة.. حين يكون الجهل فضيلة.

***

سكينة بنت علي محمد همام.. نمرة المسجونة بالدفتر العمومي 4919 .. العمر 30 سنة.. الوزن عند الدخول 47 كجم، الوزن آخر مرة قبل التنفيذ علية 53 كجم، تاريخ دخولها السجن: 17 نوفمبر 1920، تاريخ الحكم: 16 مايو 1921، تاريخ التنفيذ عليها: 1921/12/21 حالتها الصحية عند دخول السجن: جرب بالجسم، حالتها الصحية قبل التنفيذ عليها مباشرة: جريئة، ورابطة الجأش آخر عبارة فاهت بها قبل التنفيذ عليها:

- أني جدعة وباتشنق محل الجدعان..

مدة الزمن التي شعرت بدق النبض فيها عقب الشنق:

أربع دقائق.

***

كانت "سكينة" حينما تعترف بشكل نهائي تخفف من دور زوجها لأنه، وإحنا كلنا كنا عبيد مأمورين.. ثم تعلن أمام وكيل النيابة أنها غارقة في حبه، وتطلب أن يعذروها ..

وفي مواجهة بين "ريا" و"سكينة" أمام النيابة بعد اعترافات "ريا"، جاءت اعترافات "سكينة" :

- ......

- لما أختي "ريا" عزّلت غصبن عنها للبيت المشؤم في شارع علي بك الكبير ..

....

- وأنا عزّلت غصبن عني في شارع ماكوريس ..

- يعني إيه غصبن عنها، وغصبن عني ..؟

- ....

- ما تردي ..!

- ....

- القصد.. كمّلي ..

- جاتني "ريا" تزورني في يوم كات رجلي فيه وارمة، قالتلي إنتي مطلوبة ..

- إيه؟ مطلوبة؟.. من مين؟

- ....

- برضه مش حتردي يا مذنبة!

- ....

- كملي ..

- واحنا ماشيين نتعكزوا عليها.. لقيتها بتحكيلي عن جارتنا هانم اللي اشترت كام حتة ذهب قلت لها: (وماله دي غلبانة) قالت لي (لا.. لازم نزعلوها أم دم تقيل دي) ولما وصلنا بيت "ريا" لقيت هناك جوزي "عبد العال" و"حسب الله" جوز "ريا" و"عرابي" و"عبد الرازق" ..

- ....

– المطرح كان ضلمة، وكنت هصرخ لما شفت جِتة "هانم" وهي ميتة، وعينيها مفتوحة تحت الدكة، الرجالة كانوا بيفحروا تحت الصندرة، ولما حسوا إني خايفة قالوا لي إحنا أربعة وبره فيه تمانية،وإذا اتكلمت هيعملوا فيا زي هانم! ..

– ....

– شفتها بعيني،راح خوفي من هانم، ومبقيتش من يوميها بنخافوا إلا منها ..

– هي مين؟

– ....

– هانم ولا مين ما تلخفنيناش ..؟

– ....

– اتنيلي كملي ..

– كنت خايفة قوي لكني قلت لنفسي، وأنا مالي طالما الحاجة دي محصلتش في بيتي، وبعد ما دفنوا الجثة إدوني تلاتة جني رحت عالجت بيهم رجلي ودفعت أجرة الحلاق إللي فتحلي الخراج ..

– ....

– ....

-- وعندما بدأ رئيس النيابة يتحدث عن المتهمة "أمينة بنت منصور" قالت أمينة أنا مظلومة.. فصاحت فيها سكينة من داخل قفص الاتهام..

-- إزاي مظلومة وفيه جثة مدفونة في بيتك..

-- ....

-- دي انتي أصل كل شيء من الأول..

-- ثم تبتسم لأحد بالأعلى، وتقول:

-- مبسوطة مني ..؟!

-- ....

سبعة عشر بَولًا تبوله هي لتختم ضحاياها..أو ضحايا ضحاياها.. تتقدم في ثبات، وجلال.. يتروي الباقون في ركن المطرح،لا يقدر أحد على النظر.. من نظر احترق،تدور حول الجثة.. ثم تجعلها بين رجليها.. ثم ترفع طرف الجلباب.. تارة في فم الضحية، وتارة على صدرها، وعلى ظهرها تارة أخرى، وحين تنتهي يتنفس الجميع من جديد، وتمضي هي حيث لا يقدر أحد أن يتبعها.

***

إنها الإله النقيض أو إلهة الشر.. مقدسة كلها في أرضها.. حَجَرًا حجرًا، وفي عليائها.. نجمةً نجمةً تحيط بجسدي، تتخطّاه.. لسنا جميعًا

سوى محطات لقطارها المنطلق.. الجسد المحطة، الجسد الأداة.. فيها، وبها يتكوَّن،وفيها يذوب.. منها يظهر وفيها ومن دونها يغيب.. فيها بُعدٌ خفيٌّ لا يمكن ردُّه إلى البشر وحدهم.. أو إلى الآلهة وحدهم.. هي بوصفها المنشأ والمآل.. الأكثر تآخيًا مع سيدها وأبيها، والأكثر غموضًا.. إنها النشأة الأولى والدهشة الأخيرة ..

في أساطير الكوسموجونيا.. نشوء الكون تمثّل هي العماء.. الأول الكلّيةَ التامة والوحدة اللامتعيَّنة التي يقوم عليها كل وجود لاحق.

إلى الأرض التي لا عودة منها.. إلى أرض تطأ منا الروح قبل أن نطأ منها الأديم ..

اتجهت بديعة ابنة أبي مرة إلى دار الظلام.. إلى حيث نستحق أن نكون بخطايانا.. إلى الدار التي لا يؤوب منها داخل إليها،وعلى طريق لا يرجع بسالكه من حيث أتى؛ إلى المكان الذي حُرم سكانه النور .. حيث التراب طعامهم والطين معاشهم؛ لا يرون نورًا وفي الظلمة يعمهون؛ عليهم أجنحة من ريش تنقلهم كما الطيور؛ وعلى المزاليج والبوابات هناك تكدس الغبار، وامتقعت الوجوه حتى غدت بلون شجرة طرفاء مجتثة، واسودت الشفاه حتى صارت بلون وعاء أحبار الكتبة المقدسين..لتحيا بديعة واقعًا لا يدري كنه أسطوريته، وأسطورة لا تدرك واقعيتها..

لتحيا بديعة ..

19

-جثمان وراء آخر.. بلا كفن، بعض الوجوه يبدو عليها الذعر والدهشة.. وجوه أخرى تخالها نائمة،حضورها بطقوس الألم في لحظات الغياب الأولى مرسوم على وجوه كانت ..

-حشرجات أخيرة لا زالت على شفاه تيبست، أقوال بلغة المساحة ما بين الحياة والموت.. لم يصغ إليها عرائس القتل الماريونت.. ربما سمعتها هي.. أو حال خرير البول دون ذلك.. لوعة الفقد لا تصيبن مُفقِد..

***

محكمة جنايات الإسكندرية..

حكم إعدام..

قضية النيابة العمومية نمرة (43) لبان سنة 1921

ضد 10 متهمين ريا وسكينة وثمانية آخرين ..

" حيث إنه قد تبين من التحقيقات التي حصلت في الدعوى ومن شهادة الشهود الذين سمعوا أمام المحكمة أنه في غضون المدة من يناير إلى 14 نوفمبر سنة 1920 ورد بوليس كراكون اللبان بالإسكندرية عشرة بلاغات عن اختفاء عشر نسوة من الطبقة القاطنة بدائرة المذكور ..

قُدِّمت هذه البلاغات من ذوي قرابتهن وحفظتها النيابة لعدم الاهتداء إلى معرفة مقر تلك النسوة ولا أسباب غيبتهن ..

وكانت الحرمة سكينة بنت (---) ثانية المتهمين تسكن في ذلك العهد منزلًا لوالدة من يدعى أحمد (---) كائنًا بحارة ماكوريس نمرة (5) خلف قسم اللبان وكان مؤجَّرًا لشخص يُدعى محمد (---) الذي أجر منه غرفة لسكينة بالدور الأرضي ثم أخلى هذا المنزل واستلمه المؤجر في 30 أكتوبر سنة 1920 فأخذ يُجري فيه بعض تحسينات طلبها منه مستأجر جديد وقد اتفق أنه في يوم 15 نوفمبر سنة 1920 بينما كان أحمد (---) يحفر في أرضية الغرفة التي كانت تقيم بها سكينة لأجل تركيب مواسير المياه إذ عثر على جثة امرأة كانت مدفونة فيها فأخطر القسم بذلك ..

وباستمرار الحفر بأرضية تلك الغرفة وُجِدَت بها أيضًا جثتان لامرأتين خلاف الجثة الأولى .. ثم حفرت أرضية غرفة أخرى لسكينة بمنزل موجود بحارة النجاة نمرة (5) بقسم اللبان فوجدت بها جثة رابعة ..

وقد علم وقتئذ أن لسكينة أخت تدعى ريا وهي المتهمة الأولى وريا هذه متزوجة بحسب الله (---) ثالث المتهمين وكانت تسكن غرفة بالدور الأرضي بمنزل كائن بشارع على بك الكبير بالقسم المذكور وتكثر من التردد إلى غرفة بمنزل آخر كائن بحارة النجاة بدوره الأرضي تشغلها الحرمة أمينة (---) المتهمة الثامنة ..

وقد وُجِدَت اثنتا عشرة جثة نسائية مدفونة بالغرفة الأولى وجثة أخرى لامرأة مدفونة بالغرفة الثانية، وتلك الجثث البالغ مجموعها سبع عشرة هي جثث النسوة المبينة أسماؤهن بأمر

الإحالة وهذه المحلات جميعها أعدت للدعارة سرًا وكانت البغايا من النساء ترددن إليها تارة من تلقاء أنفسهن وطورًا بطلب من ريا وسكينة لتعاطي المُسكرات وارتكاب الفحشاء فيها وكانت إدارة المحلات المذكورة مشتركة بين ريا وسكينة وأرباحها تقسم بينهما..

ودل التحقيق على أن ثماني جثث من السبع عشرة التي اكتشفت بالكيفية المتقدم ذكرها لنسوة من اللائي حصل عنهن التبليغ وهن نظلة بنت (---) وسليمة (--) ، ونبوية (--) ، وزنوبة (--) ، وفاطمة (---)، وفردوس(---) ، وتبين أيضًا أنه كان لتلك النسوة مصوغات معلومة عند ذويهن لم يعثر عليها في محلات سكنهن..

وحيث إنه باستجواب سكينة أمام النيابة قررت بأنها اشتركت بالاتفاق مع أختها ريا في قتل عشر نسوة من اللائي وُجِدَت جُثثهن بالمنازل المذكورة وبأن مطلقها محمد عبد العال وحسب الله - زوج رية - وعرابي وعبد الرازق (---) صاحبهم قتلوا منهم هانم ونظلة وعزيزة وزنوبة وبأنهم ما عدا محمد (---) قتلوا أنيسة بنت (---) وبأن حسب الله (---) اشترك مع عرابي (---) في قتل نبوية زوجة السماك وسليمة بنت (---) الشهيرة بأم عرفات بائعة الغاز ونبوية القهوجية وفاطمة بنت المخدمة ومع عبد العال في قتل فردوس وقررت بأن المجني عليهنَّ كنَّ يجئن بدعوة منها وأختها رية إلى تلك المنازل للالتقاء بالرجال حيث يكون

هؤلاء المتهمون في انتظارهن مصرّين باتفاقهم معها ومع أختها ريا على قتل تلك النسوة وسرقة ما يكون عليهن من المصوغات ..

ولأجل تسهيل قتلهن بواسطة مَنْ ذُكروا من المتهمين كانت تقدمان إليهن الخمور القوية المفعول ما يكفي القليل منها لإسكارهن سكرًا شديدًا لا يستطعن معه محاولة أية مقاومة أو استغاثة فكان أولئك المتهمون ينتهزون فرصة لاغتيالهن بواسطة كتم النفس والخنق..

وقررت أيضًا بأن أحدهم كان يخنق كل امرأة منهن بمنديل يشده حول عنقها أو بيديه بينما كان الآخرون ممسكين بيديها ورجليها وصدرها أو فمها لمنعها من إبداء أي حركة إلى أن يتم زميلهم فعلته وتزهق نفس المرأة .. وبأن عرابي هو الذي كان يباشر الخنق في معظم تلك الحوادث ثم يدفنون جثثهن بالأمكنة التي وجدت فيها بعد تجريدهن من مصوغاتهن ومما يجدونه معهن من النقود وكانت المصوغات تُباع بعد ارتكاب الجرائم بمعرفة سكينة ورية إلى المتهم (---) الصائغ وغيره وأثمانه توزع بينهم ..

وحيث إن الإقرار الصادر من سكينة أمام حضرة قاضي الإحالة وأمام هذه المحكمة لم يخرج عن هذا المعنى غير أنها قررت بأن القاتلين لسليمة هم حسب الله ومحمد (---) وعبد الرازق وسلامة الكيت وقد كررت اعترافها أمام هذه المحكمة ..

وحيث إن ريا بعد أن اختلفت في أقوالها أمام النيابة اعترفت أثناء استجوابها من حضرة قاضي الإحالة باشتراكها هي وسكينة بطريق الاتفاق في قتل ستة من تلك النسوة وهن هانم ونظلة وأمينة وأنيسة وفهيمة وفردوس، وقرر بأن القاتلين لهن هم زوجها حسب الله (---) ومحمد (---) عرابي (---) وعبد الرازق (---) واتفقت روايتها مع رواية سكينة فيما يختصُّ بكيفية حصول القتل ودفن الجثث والتصرف في المصوغات المسروقة، وقد كررت اعترافها أمام هذه المحكمة أيضًا ..

وحيث إن حسب الله (---) اعترف أمام النيابة بأنه قتل من النسوة ثمانية وهن نظلة وسليمة ونبوية بنت (---) الشهيرة بفهيمة باشتراكه مع محمد (--) وعرابي (---) وعبد الرازق (---) وفاطمة بنت (---) المخدمة ونبوية (---) باشتراكه مع عرابي (---) وسليمة بنت (---) باشتراكه مع محمد – (---) وأنيسة مع اشتراك عرابي حسان وعبد الرازق (---) ، وقرر بأن القاتل لفردوس هو محمد (---) وحده .. وحيث إن محمد (---) اعترف بتحقيق النيابة بقتله هانم ونظلة بالاشتراك مع حسب الله (---) وعرابي (---) وعبد الرازق (---) وبأنه اشترك معهم أيضًا في قتل امرأة لها سِنَّة من ذهب لا يعرف اسمها ..

ورابعة يبلغ عمرها 36 سنة بيضاء نوعا متوسطة الجسم والقامة وامرأة خامسة وهي التي دُفنت في غرفة سكن المتهمة أمينة بنت (---) ومحمد (---) أنكروا ما أسند إليهم ..

وحيث إن حسب الله (---) عدل أمام حضرة قاضي الإحالة عن الاعتراف الصادر منه في تحقيق النيابة مدعيًا أنه اعترف من الإهانة والجزع .. ولكن لا يمكن الاعتداد بهذا الادعاء لأن اعترافه تكرر منه مرارًا بالتحقيقات يحتوي على وقائع مطولة وظروف مختلفة لا يمكنه ذِكْرُها إلا إذا كان الاعتراف صادرًا منه بمحض إرادته وفوق ذلك فإنه اعتراف مُؤيَّد بالنسبة إليه ..

أولًا: من ملازمته لزوجته ريا في تلك المنازل الملازمة التي لا تجعلها تتداخل في هذه الجرائم إلا بإشراكه معها في الأعمال الشديدة .. التي لا تقوى عليها النساء .. أو على الأقل بتحريض منه ..

ثانيًا: من شهادة السيدة بنت (---) التي قررت بأنه أعطاها جنيهين لأجل أن تتجاهل دخول فاطمة بنت (---) في البيت الذي تقيم فيه سكينة بشارع ماكوريس وعدم خروجها منه أي البيت الذي قتلت فيه ..

***

20

وتستمر الحيثيات المظنونة التي تقود إلى نتائج متوهمة ..

***

ثالثًا: من وجود خِتمه في التراب وقت النبش على الجثث المُستخرَجة من هذا البيت ..

رابعًا: من رؤية (---) أحد الشهود له بعد حادثة فاطمة بنت (---) خارجًا من البيت ومعه صرة ملابس.

خامسًا: من شهادة عزيزة بنت (---) التي أقامت فترة من الزمن ببيت سكينة بشارع ماكوريس بأنها حضرت يومًا وقت المساء عند ريا فكلفها حسب الله بحمل شوال مربوط كانت

تنبعث منه رائحة كريهة فذهب معها عند ملتقى شارع عبد المنعم بشارع أبي الدرداء وهناك أمرها بترك الشوال ثم تبين من التحقيقات التي حصلت بمناسبة البلاغات التي تقدمت بشأن اختفاء النساء وجد بتاريخ 11 ديسمبر 1920 بالمكان الذي أُلقيَ فيه الشوال هيكل امرأة يرجع تاريخ وفاتها إلى شهرين ..

سادسًا: من ضبط محبس ذهب لفردوس وملابس لها أيضًا في البيت الذي يسكنه مع زنوبة بنت (---) زوجته الجديدة ..

وحيث إن المتهم محمد (---) قرر أمام قاضي الإحالة بخصوص الاعتراف الصادر منه في تحقيقات النيابة أنه أغرى من رجال البوليس على هذا الاعتراف وأنه لا دخل له في جرائم القتل المسندة إليه، ولكن اعترافه مُؤيَّد على كل حال من ضبط فنيلة صوف لفردوس عنده ومن إقرار على (---) الصائغ بحضوره إليه مع حسب الله وريا وسكينة عند عرض المصوغات المسروقة عليه ومن ملازمته في كل وقت لزوجته سكينة ولأختها ريا ولزوجها حسب الله (---) ومن شهادة زنوبة بنت (---) زوجة حسب الله الثانية بأنه جاء إليها بصحبة حسب الله ومعهما ما ضبط عندها من ملابس فردوس بنت (---) ..

وحيث إن المحكمة تستنتج من الوقائع المتقدمة أنها ومن كون المتهمين المعترفين اشتروا في بحر المدة التي ارتُكِبت فيها هذه الجرائم من المصوغات ما لم يمكنهم شراؤها إلا من ثمن ما سرقوه من حُلي المجني عليهنَّ، ومن كون حالة الجثث دلت على

أن تاريخ القتل لم يكن سابقًا على إقامتهم في البيوت التي وجدت بها تلك الجثث أن المتهمين المذكورين لم يشتركوا فقط في قتل النسوة الوارد ذكرهن في اعترافاتهم بل قتلوا أيضًا النسوة الأخريات المبينة أسماؤهن بأمر الإحالة...

وحيث إن المتهم عرابي (---) مع إنكاره ما أسند اليه من التهم ادعى أنه لم يتوجه مطلقًا عند ريا وسكينة من عهد إقامتهما بالمنازل التي استخرجت منها الجثث وإن كان يوجد سابق معرفة بينه وبينهما وبين حسب الله (---) ومحمد (---) بمناسبة تردده عليهم بالمحل المشهور بالكامب الذي كانت تديره ريا بسوق الجمعة بالإسكندرية..

ولكن قد كذبه فى ذلك شهود منهم السيدة بنت (---) بغرفة المنزل الكائن بشارع ماكوريس في اليوم نفسه الذي اختفت فيه فاطمة المذكورة ورأت ترابًا مُكوَّمًا بجوار باب الغرفة وهذا التراب كان قد استُخرِجَ من أرضية الغرفة بعد دفن جثة فاطمة فسألت عنه فأخبرها حسب الله وريا أن المرأة قد تقيأت فنقلت التراب الى تحت سلم المنزل..

ومنهم زينب بنت (---) التي شهدت بأن ابنتها نظلة إحدى المجني عليهنَّ كانت تجتمع كثيرًا بالمتهم المذكور عند ريا وكانت تخشى بأسه لأنه فتوة ومشهور بأنه يخنق ومنهم شفيقة بنت (---) وعبد المحسن (---) اللذين قررا رؤيتهما عرابي (---) يتردد على منزل ريا الكائن بشارع على الكبير وقد شهد غيرهم بأن نظلة

المقتولة كانت خليلة عرابي وكان يريد الزواج بها، ولما اختفت لم يهتم بأمرها، وأخذ يقول لكل من كان يسأله عنها بكرة تحضر..

وحيث فيما يتعلق بالمتهم عبد الرازق (---) فإنه ثبت من أقوال الشهود أنه كان معاشرًا للحرمة أنيسة بنت (---) إحدى المجني عليهن وكان يجتمع بها في منزل ريا بشارع على بك الكبير وكانت أنيسة المذكورة نسبت إليه قبل اختفائها سرقة قرط من ذهب ونقود لها، ووسطت بعض أصدقائها في استرداد هذه الأشياء منه، فرفض وأظهر غضبه عليها خصوصًا لما رأى أن تهمة السرقة الملصقة به أخذت تنتشر في المقاهي التي كان يذهب إليها، فكان حينئذ من مصلحته أن يقتل أنيسة للتخلُّص من تشهيرها به والاستفادة بجزء من حلها ..

وقد ثبت منها أيضًا أن عبد الرازق كان معاشرًا لريا وسكينة وحسب الله ومحمد (---) من بدء سكنهم بالمنازل التي وُجِدَت بها الجثث ومرتبطًا بهم كل الارتباط، وكان يرى من واجبه أن يدافع مع عرابي (---) عن سمعة تلك المنازل كلما وجد لذلك فرصة مع علمهما بما هو حاصل فيها من القبائح، وكان به عند ريا وسكينة من المنزل والمكانة ما يجعله يتصرف في محلاتهما كيف يشاء، ويضاف إلى ذلك أنه من أجلها هذه الدعوى بمبلغ لا يمكنهما الحصول عليها من المكاسب التي كانت تأتيهما بالوسائل المباحة .

وحيث إنه يُستنتَج من هذه الظروف والظروف السابق بيانها ومن الكشوف الطبية الموقعة على الجثث المؤيدة لما ورد في

أقوال المتهمين المعترفين من حصول القتل بطريق الخنق ومن يد عدة أشخاص ومن القرائن القوية التي تعزز أقوال ريا وسكينة وحسب الله (---) ومحمد (---) بالنسبة لكل من عرابي (---) وعبد الرازق (---) ما يحمل المحكمة على الاعتقاد التام بأنهما باشرا قتل السبع عشرة نسوة المتقدم ذِكْرُهنَّ.

وحيث إنه متى تقرر ذلك يكون عقاب حسب الله (---) ومحمد (---) وعرابي (---) وعبد الرازق (---) بصفتهم فاعلين أصليين للجرائم المذكورة وهى سفكهم دماء السبع عشرة نسوة عمدًا مع سبق الإصرار..

في الظروف المتقدم بيانها واستباحة أموالهن بتبديدها في المنكرات وذلك في المدة الواقعة بين نوفمبر سنة 1919 و12 نوفمبر 1920 بجهة حي اللَّبان بالإسكندرية هذه الآثام التي لم يُشاهَد مثلها في القسوة والفظاعة من عهد تأسيس المحاكم للآن منطبقًا على نص مادتي 39 و194 عقوبات.

وعقاب ريا وسكينة بصفة كونهما اشتركتا مع الفاعلين الأصليين في التاريخ والمكان السابق ذكرهما في تلك الجرائم بطريق الاتفاق والمساعدة في الأعمال المسهلة لارتكابها بأن أحضرتا المجني عليهن إلى محلاتهما ..

وأسكرتهن ليتمكن الفاعلون الأصليون من خنقهن بدون أدنى مقاومة منهن فوقعت جرائم القتل بناء على هذا الاتفاق وهذه المساعدة منطبقًا على نص المادة 40 فقرة ثانية وثالثة و 41 و14 و199 من القانون المشار إليه.

وحيث إن أوراق هذه الدعوى قد أُرسلت بتاريخ 12 مايو سنة 1921 إلى حضرة صاحب الفضيلة مفتي مدينة الإسكندرية لإبداء رأيه طبقًا للمادة 49 من قانون تنظيم محاكم الجنايات ووردت منه مشفوعة برأيه في 15 منه بنمرة 401 ..

وحيث عن تهمة سلامة (---) الملقب بالكيت فإنه لم يوجد ضده سوى أقوال سكينة وحسب الله (---) التي لم تُؤيَّد بأي دليل من الأدلة المقنعة حتى يمكن الأخذ بها والتعويل عليها في الحكم بإدانة الشخص المذكور فيما هو متهم به ..

كما أن المحكمة ترى فيما يختص باتهام كل من أمينة بنت (--) ومحمد (---) الشهير بالنص زوجها بالاشتراك في قتل نبوية بنت (---) بالاتفاق والمساعدة أن الأدلة التي وصلت إليها التحقيقات لا تكفى لإثبات التهمة الموجهة إليهما ..

ويتعين الحكم حينئذ ببراءة الثلاثة المتهمين المذكورين لعدم ثبوت التهمة المسندة إليهم ثبوتًا كافيًا عملًا بالمادة 50 من قانون تشكيل محاكم الجنايات ..

وحيث إن تهمة إخفاء المصوغات المسروقة المنسوبة إلى على (---) فإنه ثابت من اعترافه أنه اشترى جانبًا من مصوغات المجني عليهن على أربع دفع من ربة وسكينة بحضور حسب الله (---) ومحمد (---) ..

وذلك أثناء المدة من نوفمبر سنة 1919 لغاية 12 نوفمبر سنة 1920 بالإسكندرية ولكنه يَدَّعي أنه كان يجهل مصدر تلك المصوغات الحقيقي.

21

وحيث إنه مع التقرير المذكور لم يشترِ تلك المصوغات إلا في أربع دفع كما يقول وليست في ست دفع كما قالت سكينة فقد تبين للمحكمة أنه كان يعلم بسرقة المصوغات عند شرائه إياها بدليل حصول الشراء خُفية وبثمن يقلُّ عن نصف قيمتها الحقيقية وبدون أن يحتاط في أخذ الضمانات التي يكون من شأنها إخلاء مسئوليته عند الاقتضاء وإسراعه بكسر معظم تلك المصوغات لإضاعة معالمها.

وحيث إنه مما تقدم تكون تهم الجرائم المسندة إلى محمد (---) ثابتة قبله في الأربع وقائع المعترف بها فقط وعقابه ينطبق على نص المادة 279 فقرة أولى من قانون العقوبات مع مراعاة المادة 36 منه بالنظر إلى تعدد الجرائم ..

فلهذه الأسباب ..

وبعد الاطلاع على النصوص القانونية المتقدم ذكرها حكمت المحكمة حضوريًا:

أولًا: على كل من ريا وسكينة بنتي (---) وحسب الله (---) ومحمد (---) وعرابي (---) وعبد الرازق (---) بعقوبة الإعدام.

ثانيًا: على ... علي (---) الصائغ بالحبس مع الشغل لمدة خمس سنوات.

ثالثا: ببراءة كل من سلامة (---) والحرمة أمينة (---) الشهيرة بأم أحمد وزوجها محمد (---) الشهير بالنص مما أسند إليهم في هذه الدعوى ورفض الدعوى المدنية الموجهة قبلهم وقبل علي محمد (---) الصائغ..........."

هذا ما حكمت به المحكمة بجلستها العلنية المنعقدة بسراي محكمة الإسكندرية الأهلية في يوم الاثنين 16 مايو سنة 1921 الموافق 8 رمضان سنة 1339.

رئيس المحكمة

ملاحظة .. هذه القضية قُيّدت بجدول النقض تحت رقم 1937 سنة 38 قضائية وحُكم فيها من محكمة النقض والإبرام برفض الطعن في 30 أكتوبر سنة 1921. ونُفِّذَ حكم الإعدام داخل الإسكندرية في 21 و22 ديسمبر سنة 1921.

***

أهرامان يهزم هرمز.. لم تنفع الأخير مَخلوقاتُه من بَشَرٍ وملائكة.. اثني عشر ألف سنة.. قبل التيه لا تجده،بعده بدأت الإشارات الغامضة إليه، إله مساو للإله (يهوه) ألصقوا فيه أنه سبب كل مصائبهم أسموه "عزازيل" ليمثل الشر، وكانوا يقدمون القرابين لعزازيل كما يقدموها ليهوه كما جاء في العهد القديم "..يلقي هارون على التيس قرعتين .. قرعة للرب وقرعة لعزازيل .."..إله الخراب والصحراء..

بل زعيم الملائكة المتمردين على الربِّ الذين هبطوا للأرض وزنوا ببنات البشر ثم انهزموا أمام جنود الخير ولاذوا بالصحراء ..

وعزازيل هذا عند البابليين هو إله الهلال.. الإله "سين" وكانوا يصورونه بشكل تيس وهيئته وله قرنان، وهذا ما تطوَّر في العقل البشري لاحقًا ليكون صورة الشيطان، فله قرنان وحوافر وقوائم

تيس وذيل ينتهي برأس أفعى.. الإله "سين" إله التيوس البابلي.. أو كما يقولون عنه الإله **Attis** ، وهو الذي كان على هيئة شابٍ وسيم جدًّا مات مقتولًا وهو على هيئة تيس، فهبط سيدًا لعالم الموتى السفلي..

وبعد الأسر البابلي لليهود أثرت العقائد الزرادشتية، وظهرت لأول مرة كلمة "**Satan**" أو شيطان أو إبليس وهي اختصار للأصل اليوناني "ديابوليس" وتعني ملاك الموت أو زعيم الهاوية السفلي ..

اللذة تعبير عن تلقائية الأنا في كل اتجاه.. الذات تعبير عن سلبية الوجود الإنساني..فاللذة مصدر كل كآبة وألم سلبي لأنها تحمل نقيضها دائمًا،ويبدو النقيض في عالم المادة لأن كل عمل من أعمال الأنا ينطوي على فنائه،وتُعرّف أعمال الأنا بأنها الملذات التي يسعى إليها الإنسان، وتصبح معيشته المادية حقلًا من الملذات.. يتناوب فيها الإنسان راغبًا ..

ذلك لأن أناه تفرض وجودها ..

اللذة لا تنمو وتترعرع إلا في أحضان الأنا الجاهلة التي لا تعي غاية وجودها هذا، لأن ضآلة فاعلية الإنسان في نطاق الفهم والوعي يعني انفعال أناه على نحو لذّة .. وعندما تنعدم السكينة الداخلية تبرز الأنا وتسيطر من خلال الفوضى..

ينشأ الألم من التعلق والرغبة لجامان في يد الحوذي بديعة في البدء يكون التعلق بها جبرًا.. ثم ترسل لك رسولة يكون التعلق بها اختيارًا، وأنت في الاثنتين مجبر.. لا فِكاك نحو التجرد.. من التعلق ينشأ الألم، ومن الرغبة ينشأ الألم،ومن الرغبة تنشأ الحسرة والأسى.. لا اختلاف إن أقبلتَ نحوها أو أدبرتَ عنها فالحصول على أمر والاستزادة منه يعادلان الحرمان منه .. ففي حالة الحصول نتعلق، وفي حالة الحرمان نرغب، وأتأرجح أنا بين الرغبة والتعلُّق لأرى وجودي خاليًا من المعنى والقيمة ..

***

- فوزية

- نعم يا سيدي ..

- إنتي كنتي فين؟!

- كنت في الشغل ولسه جاية والله!

- مش القصد يا جميلة.. كنتي فين من زمان ..

- موجودة ..

- بس كده .. موجودة!

- آه .. يمكن عشان موجودة ما بتشافش

- ....

- وإنت يا سيدي ..

- أني ما بنتشافوش.. بس مش موجود

– كفاية عليك عيني .. ده إنت سيد الناس ..

– تعيشي وتسلمي يارب

– ......

– ....

– عملتي إيه في موضوع أختك؟

– أختي مين ..؟؟!

– أختك إللي عايزة بحث اجتماعي!

– إنت لسه ما فهمتش؟

– فهمت إيه؟!

– إني كنت جايالك إنت من كلام بنداق عنك حبيتك بوداني ..

– طب ما تيجي ..

– تيجي إيه! اسم الله على مقامك ..

– تيجي نضربوا بونطة سوا ..

– نيجوا .. نيجوا معاك لآخر المالح يا سيدي ..

– ....

– ....

***

عواطف الإنسان تتجه إلى تحقيق ذاتها في الآخر.. نداء القلب للقلب، والروح للروح.. نداء عميق للآخر في الإنسان،وهنا يأتي الألم من عدم تحقُّق هذا النداء ثم يأتي ألم آخر من تحققه. فحين يتحقق نداء الروح ينتفي تحقق نداء الجسد، والعكس بالعكس ..

ثم لا ينفكُّ يظهر ألم جديد للإنسان من الواقع المَعيش.. ألم إزاء نفسه، وألم إزاء الآخرين، وحين تنفي سيدتك نفسك، وقبلها تنفي الآخرين يكون الألم إزاءها وحدها ..

توحيد الذُّل والألم لكيان قمة العز واللذة ..

الشر بدأ بالسقوط بعد الخطيئة.. فإذا كانت هي أصل الخطيئة بأبيها، وأصل الاستجابة لها بأنثويتها.. هنا لا تكون الخطيئة منشئة .. فقط كاشفة ..

سبعة عشر لقاءً جمعني بفوزية في المبيت المهجور خلف دار الرعاية في نهاية سور الملجأ الأميري العباسي.. لا أذكر أولها، ولا آخرها.. فقط وسطها لأفيق بعدها ممدًا إلى جوارها على أرض المبيت الحجرية.. الطين يملأ أظفاري ويدي،وكذلك هي إلى جواري نقوم، ننظر إلى هيئتنا بصمت متآمر.. ثم نتسلل نحو غرفتي في الدار قبل أن يصحو الجميع، نغتسل ونتبادل النظرات السمكية الباردة، وتمضي بعدها نحو يومها وتتركني لألاقي يومي الرمادي ..

إن ضربة جناح واحد للفَراشة اليوم ينتج تغيرًا طفيفًا في حالة الجو، وبعد فترة من الزمن يبتعد ما يفعله الجوُّ فعلًا عما كان سيفعله، وهكذا خلال شهر من الزمن لن يحدث الإعصار الذي كان سيضرب شاطئ إسكندريتي، وربما يحدث إعصارٌ في مكان آخر ما كان له أن يحدث لولا حركة جناح الفراشة ..

بديعة.. كل ما كان عليها أن تضرب ضربتها الأولى ليعمل التسيير الذاتي عمله، ونمضي لما اخترنا أن نفعله مجبرين ..

مشاهد شبه لحظية من واقع مررت به حالمًا أو لا واعيًا يكفي لك أن تسلسلها على امتداد سبعة عشر موضعًا.. تدخل هي في حضور مسرحي في نهاية المشهد، تطمئن، تؤدي طقسها المقدس ثم تمضي لحين صدور أوامر أخرى ..

ليظل مِلاك الأمر .. ترك الأمر.

الحيرة فيها بين الذات والصِّفات لا تجب.. الجهل سبيل، والمعرفة كبيرة من الكبائر في حقِّها.. يوم أن تعرف ستتمنى لو لم يأتِ..

هي .. كيفية بلا زمان ولا مكان .. كن فكان ..

22

محاولة فهم الشخصية من الجسد.. المحاولات قبلها كانت تبئيرًا للعقل، ما يحدث في الجسد يؤثر بالضرورة في العقل.. هذا ليس بجديد.. الجديد كان مجالها الحيوي الطاقي حيث تحدد العمليات الطاقية لجسدها ما يحصل في العقل بالطريقة نفسها التي يحدد فيها ما يحصل في جسدنا ..

99% من الجسم مُكوَّن من الماء، بإمكاننا أن نتخيل أحاسيسَ، ومشاعر، وانفعالات كما لو أنها تيارات أو أمواج لهذا الجسم السائل..

فتكون تحركات الكائن الحي منا هي أشبه ما تكون بأمواج بحيرة مصدرها قوى داخلية مسيطر عليها.. أو قوى خارجية مسيطرة من

الأساس فيصبح الجسم عبارة عن نِظام طاقي في تفاعُل طاقي مُستمرّ مع وسطه المحيط ..

بديعة.. قبل الشَّرّ كانت هي.. الألم في مَعْلَمَيْه.. سلبي وإيجابي.. سلبي بالانغماس في سلبيَّة الوجود.. يُقلِق الإنسان.. يشقيه.. يمزق الإنسان في داخله، وهكذا يظل الإنسان عبدًا لها ..

لم نعرف أنا وفوزية.. لماذا يُمرُّ طيفها.. ليختتم الصورة الغائمة لما بعد اللذة، وما قبل السُّبات ..

وتران على عود واحد.. وَتَرٌ مُفْرَطُ الشَّدِّ يكاد ينقطع لتتلاشى موسيقاه القادمة،وتر رخو أخرس يكاد يُميت الموسيقى، نتراوح نحن الاثنين في الماهية بينهما ..

الذهن البشري يضم الإدراك الحسي،التفكير، الإرادة، تشكّل في مجملها الوعي، وحين تغيب جميعها.. يغيب هو، وحين يغيب.. تغيب أنت ولا تكون، وقبلها، وربما بعدها أيضًا.. تغيب الصورة الكاملة للنفس الإنسانية.. ما لم ينصرف الانتباه إلى عالم ما تحت الوعي الكامن وراء الأعمال والأفكار والرغائب البشرية.. فما تحت الوعي هو مصدر الحدس الذي بوسعه أن يوحي بالفكر العقلي، ولكن لا يمكن الوصول إليها بالعقل ما دام العقل يقيد نشاطه بالمستوى الواعي.. السطح الواعي للنفس الذي هو نسبيًا ممكن الفهم ليس بالمقدور فهمه فهمًا كاملًا وصحيحًا ما لم نره كمجرد جزء لا يُجتزأ

من النفس الكلّية التي تهيمن فيها الأعماق ما تحت الواعية على السطح الواعي بمقدار ما تكون هذه الأعماق ما تحت الواعية غير مفهومة أو مجهولة..

الفائدة في نقل هذه الأعماق ما تحت الواعية أو على الأقل الطبقات العليا منها إلى الوعي هي في أننا حين نغدو واعين لها، نتمكّنُ من السيطرة عليها بدلًا من أن تسيطر علينا من حيث لا ندري، وقد فعلت هي، ولم نفعل نحن فسقطنا في الألم ..

إيجابي.. ألم الوجود الذي يعبِّر عن ذاته بمخاض داخلي باغتراب داخلي وخارجي يتعمق في العالم، بثورة عارمة على الإنسان ذاته.. الألم الذي يصعد الإنسان في سلبيّته ليتجاوزها إلى إيجابيته، وهكذا.. يتخلص الإنسان من عبودية العالم ليكون عبدًا لها وحدها ..

الألم السلبي يعني شقاء الإنسان وتعاسته، والألم الإيجابي يعني تجاوُزَ واقع الإنسان إلى الغِبطة، إلى الشعور الكامل بحقيقة الوجود عندما يتجرد الإنسان من السلب.

ينعدم الألم متى تساوى الذهب مع الحجر، ومتى يحدث ذلك ترفع يديك استسلامًا وأنت تبتسمُ ابتسامةَ الرضا ..

***

من ينقل لك .. ينقل عليك ..

دلائل العشق لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العَبَق.. فما بالك بدلائل عشق لا تخفى على عاشق .. البنداق!

كان عاشقًا في نفسه لفوزية.. لم ألحظ، ولم أفطن، وحين رآها أكثر من مرة تأتي إليّ تبعها وعلم موعدنا.. أكاد ألمحه بين فروع أشجار سور الملجأ الأميري التي تطل على المبيت المهجور يتابع عاشقين يتسللان، أكاد ألمح دمعة حسرة على خده ثم يَهَبُ العاشقين القليل من الوقت الذي يحرقه تمهيدًا لما سيأتي من لقاء فيقترب من المبيت، وبين فرجة الباب يتابع، ومن كسر النافذة تطل عيناه على ما يؤلمه ..

المهم كان يدري أننا نفعل وندري ما نفعل، ولا ندري أنه يدري..

الأهم أننا كنا نفعل، ولا ندري أننا نفعل، ولا ندري أنه يدري..

***

الجمعة 17 أكتوبر 1924 ..

ممددان أنا وفوزية كعادتنا حال بين غروب لذة وشروق آلام.. صرير الباب الذي كنا نفتحه معًا في هدوء يكاد ينخلع من قوة دفعه، وقوة صوته.. أقدام ثقيلة نُصِرَت بالرعب على مسيرة خطوات..

رفعت أثقال جفوني لأستبين ظلالًا قاتمة يقف خلفها البنداق متآمرًا يراوح بصره الزائغ بيني بشماتة، وبين فوزية بشفقة.. تركت جفوني تسقط على صورهم ينبشون أرض المبيت.. غرفة نومي، وحبيبتي.. انتهاك ولا قوة لرده .. العجز يقتل قبل النصل أحيانًا ..

صمت

تَحْلُل هي في جلال، تشير إلى أرضية المبيت، وتشير إلى كلينا بعين تستدر عطف الآخرين، وتنذر خوفنا نحن ..

كيف لعين أن تفعل الاثنين معًا ..

خضرة..نظلة.. عزيزة.. نبوية.. زنوبة.. سليمة.. نبوية.. فاطمة.. زنوبة.. فاطمة.. أنيسة.. أمينة.. خديجة.. هانم .. فاطمة .. حجازية.. فردوس ..

فتيات الملجأ الأميري العباسي خرجن سراعًا من التراب في تراتبية عجيبة، تابعتهن سماعًا كمن يتابع الأعداد بعد حقنة البنج وقبل فقدان الوعي وأشياء أخرى ..

واحد.. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ستة .. سبعة .. وثمانية .. وتسعة .. وعشرة .. وأحد عشر .. واثنا عشر .. وثلاثة عشر .. وأربعة عشر .. وخمسة عشر .. وستة عشر وسبعة عشر.

الأيادي تمتدُّ نحوي ونحو فوزية .. تسليمًا ننقاد ..

حين تسلم قيادك لأحد.. يَسْهُلُ قِيادُك على غيره ..

حرمت البنداق من ملامح وجهي التي قد تهبه نشوة التشفي، وكذلك فعلت فوزية، وقبل صعود الأومنوبوس سيارة الركوب العمومية التي بعث بها الكراكون للتخفي.. توقفت أنا وفوزية فجأة والتفتنا معًا نحوها..سقطت الأيادي الغليظة عنَّا في ذهول، وقد عزمنا على الوقوف في وجهها، على كسر الحلقة المفرغة حتى ولو كُسرت على أعناقنا ..

المقاومة.. قدرٌ أنطولوجي نحن محكومون بها وهي محكومة بنا، وكل ما غدا ذلك من فلسفة بلا ممارسة وهم وعدم.. تحتاج إلى عنف الحق أو لا تكون..

فوزية وأنا.. نواة جماعة الحياة المقاومة التي لا تعول إلا على نفسها ولا تنتظر أي خلاص إلا بنفسها منذ البداية أو لعلنا نكون نحن البداية.. أو لن تكون ..

المجابهة حتمية ..

لا ..

سنقولها بصوت عالٍ يُصمُّ أذني الجاني، وينجو بضحاياه غدًا.. واستعددنا،احتشدنا لنجدنا نصيح معًا في تتابُعٍ وليس في نَفَسٍ واحد..

- ....

- ....

- أني راضي يا ستي .. أني طوعك يا ستي ..

- ....

- أني راضية يا ستي .. أني طوعك يا ستي ..

- ....

- ....

- أبي راضي يا ستي .. أبي طوعك يا ستي ..

- ....

- أبي راضية يا ستي .. أبي طوعك يا ستي ..

- ....

- ....

- أبي راضي يا ستي .. أبي طوعك يا ستي ..

- ....

- أبي راضية يا ستي .. أبي طوعك يا ستي ..





رضيعة شارفت على الفطام تزحف باتجاه خديجٍ لاهٍ ..
العينان واليدان لا تتوافقان مع الكائن الزاحف، جمرتان من نار، وكُلَّابتان من حديد ..
محمود .. لم تمض على ولادته أيام عشرة من عام ١٩١٢ ..
يوم الجمعة ١٧ مايو ١٩١٢.. الموت يزحف باتجاهه، الجدة في نصبة القهوة على الرصيف قرب المحلج في كفر الزيات، الأم تفرش بالخضراوات على الرصيف المقابل لأمها، الأب في المحلج والخال أيضًا قبل أن يستقر الحال بالأخير خلف نصبة القهوة مع أمه..
شفتان ما فارقتا الثدي بعد تزمّان على غضب ما كان ليقارب قلب فطيم على وشك ..
تقترب أكثر.. لا يزال محمود يُحدّق في سقف العشة، أشعة الشمس تُلاعب عينيه البريئتين، يغمضهما فجأة ..
تقترب الفطيم من الرضيع أكثر، يمتدُّ إصبعها الصغير ليطفئ عينه اليمنى.. تتشنج أطرافه وتضطرب حركته..
تُعيدها في اليسرى.. ثم تستدير في بطء مستفزٍّ لتهبط فجأة بظهرها على رأسه، تدفع قدميها الصغيرتين لتُكمل انكفاء ظهرها وإحكام ثقلها على رأس محمود، تكاد ركبتاه تلامسان صدره في انفعالهما تحت الوطأة ..
تستمرُّ حتى تمام السكون، وكمال الموت، وحينها تبول في ارتياح غريب وابتسامة أغرب ..


9789774884955


دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
01144552557
E-mail : daroktob1@yahoo.com